الهداية والضلالة

(نظرات قرآنية)

الهداية والضلالة

(نظرات قرآنية)

تأليف

إحسان بن صادق اللواتي

الهداية والضلالة

(نظرات قرآنية)

تأليف

إحسان بن صادق اللواتي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

أحمده استتمامًا لنعمته، واستسلامًا لعزته، واستعصامًا من معصيته، وأستعينه فاقةً إلى كفايته، إنه لا يضلّ من هداه، ولا يئل من عاداه، ولا يفترق من كفاه، فإنه أرجح ما وُزن، وأفضل ما خُزن، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً ممتحنًا إخلاصها، معتقدًا مُصاصها، نتمسك بها أبدًا ما أبقانا، وندّخرها لأهاويل ما يلقانا، فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحة الإحسان، ومرضاة الرحمن، ومدحرة الشيطان، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحةً للشبهات، واحتجاجًا بالبيّنات، وتحذيرًا بالآيات، وتخويفًا بالمثلات.

وبعد، فإنّ موضوع «الهداية والضلالة» هو من

الموضوعات التي استأثرت باهتمام خاص وعناية كبيرة في كتاب الله العزيز، وليست في هذا غرابة؛ نظرًا لما لهذا الموضوع من موقع خاص وأهمية كبرى في علاقة الإنسان بربه، وفي تعيين الغرض من وجوده في الأساس، وفي تحديد طريق سيره وصراط عمله في هذه الحياة الدنيا، ومن ثَمّ في الغرض من إنزال الكتب السماوية وإرسال الرسل والأنبياء.

وإذا أردنا أن نوطّئ للموضوع ببيان معنى الكلمتين، وجدنا الهداية من الهدى، وفي لسان العرب: «الهدى ضد الضلال، وهو الرشاد»[١]، ووجدنا الضلالة من «ضلّ الشيء يضلّ ضلالًا: ضاع، وتضليل الرجل: أن تنسبه إلى الضلال، والتضليل: تصيير الإنسان إلى الضلال»[٢].

وقبل الحديث عن حقيقة الهداية الإلهية، لا بد لنا من أن نعرف أنّ الهداية هي من صفات الله الفعلية، أي من الصفات المنتزعة من أفعاله سبحانه، فهي في ذلك مثل الرحمة والرزق والخلق والإحياء والإماتة إلخ، أي أنها مقابلة لصفاته الذاتية (كالعلم والحياة والقدرة).

(١) لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، مادة «هدي».
(٢) نفسه، مادة «ضلل».

والهداية الإلهية - على ما ذكر العلماء - نوعان:

النوع الأول: الهداية التكوينية، وهي التي عبّر عنها ابن الأثير بأنّ الله تعالى قد «هدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده»[١]، وهي الهداية الماثلة في اهتداء كل الكائنات الحية (من نباتات وحيوانات وبشر) بجبلّتها وخلقتها إلى أن تأكل وتشرب وتنام وتتكاثر وتسعى نحو كل ما فيه بقاؤها وتبتعد عما يتهدد وجودها. وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الهداية في آيات متعددة، منها مثلًا قوله تعالى:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[٢]، وقوله سبحانه حكايةً عن لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٣].

والنوع الآخر: الهداية التشريعية، وهي هداية الناس إلى شرع الله تعالى، ولأجلها أُرسلت الرسل والأنبياء، وأُنزلت الكتب السماوية، وعليها كان الثواب والعقاب.

وهذه الهداية التشريعية هي على نحوين:

---

(١) نفسه، مادة «هدي».
(٢) سورة الأعلى، الآيات: ١ - ٣.
(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.

أ - فهي إما بمعنى إراءة الطريق، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

ب - وإما بمعنى الإيصال إلى المطلوب، كما في قوله سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[٢].

ولتقريب فكرة هذين النحوين يضرب بعضهم لها مثالًا توضيحيًا: إذا سألك أحد الناس في الشارع عن مكان المسجد الفلاني، فإنك تارة تكتفي بأن تصف له الطريق الذي عليه أن يسلكه، فهذا هو النحو الأول من الهداية بمعنى إراءة الطريق. وتارة أخرى أنت لا تكتفي بالوصف، بل تأخذ بيد ذلك الشخص وتوصله إلى باب المسجد بسيارتك مثلًا، فهذا هو النحو الأخير بمعنى الإيصال إلى المطلوب.

إنّ محتويات هذا الكتاب هي، في الأصل، دروس دينية كان الله سبحانه قد وفّقني لها في شهر رمضان المبارك من العام ١٤٣٣هـ، ضمن حلقات برنامج إذاعي عنوانه «الهداية والضلالة في القرآن الكريم»، قدّمَتْه إذاعة القرآن الكريم بسلطنة عمان. وقد رأيتُ أنّ إخراجها في كتاب قد تكون فيه

(١) سورة الدهر، الآية: ٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

فائدة - مهما قلّت - للقراء، وزيادة أجر وثواب لي ولهم إن شاء الله.

أسأل المولى - جلّ شأنه - أن يتقبل من الجميع صالح أعمالهم، وأن يكتبنا جميعًا في عداد عباده المهتدين الفائزين بكرامته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

إحسان بن صادق بن محمد اللواتي
شهر رمضان المبارك من العام ١٤٣٩هـ
مسقط، سلطنة عمان

ehsansadiq@hotmail.com

١ - عملي وعملكم

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

هذه الآيات الشريفة جاءت في سياق تعليم النبي الأعظم محمد ﷺ كيفية التعامل مع الكافرين المعاندين الذين كثيرًا ما قد يتعرض لمواجهتهم والتعاطي الرسالي معهم. إنها تعلّمه أن يخاطبهم حالتئذ بأنّ كل طرف له أعماله التي هو مسؤول

(١) سورة يونس، الآيات: ٤١ - ٤٤.

عنها، ولن يتحمل أي طرف جريرة أعمال الطرف الآخر ونتائج أفعاله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم تبيّن الآيات أنّ هناك أناسًا قد يَبدون، في ظاهر حالهم، أنهم يستمعون إلى تلاوتك كتابَ الله وإلى كلامك - يا رسول الله - معهم وينظرون إليك وأنت تخاطبهم وتُجري المعجزات أمامهم، لكنهم، في واقعهم، لا يستفيدون شيئًا من استماعهم ونظرهم، فكأنهم صم وعمي بلا فرق؛ لأنهم جميعًا لا يستفيدون من أسماعهم وأبصارهم في السير في طريق الهدى والابتعاد عن سبل الضلال.

وفي الآيات دروس مهمة نغنمها منها:

الدرس الأول:

المهم في مقام الهدى والضلال، وصراع الحق مع الباطل، إنما هو العمل، فهو المحكّ الوحيد الذي ينماز عليه المهتدي من الضالّ، والمحقّ من المبطل، وليست ثمة أية أهمية للادعاءات والشعارات بالغًا ما بلغ جذبها وجمالها.

هؤلاء الكفار كذّبوا رسول الله ﷺ مدّعين أنهم على

الحق وهو مبطل، واتهموه ﷺ بمجموعة من الاتهامات السيئة الخطيرة التي أشارت إليها آيات قرآنية أخرى، محاولين إسقاطه من أعين الناس وتنفيرهم عنه، فما كان من القرآن الكريم إلا أن احتكم إلى العمل، فهو الفيصل الوحيد: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أجل، ففي المنظور الإسلامي يكون التفاضل بين الناس ونيل المقامات والشرف عند الله (جلّ وعلا) بالأعمال وليس بالأقوال، مهما كان نوعها؛ لذا وجدنا الإمام أمير المؤمنين عليًا عليه السلام يقول: «الشرف عند الله سبحانه بحسن الأعمال، لا بحسن الأقوال»[1].

الدرس الثاني:

الأسلوب الرسالي المثالي في التعامل مع الضالّين المكذّبين يتلخص في جانبين مهمين أشارت إليهما الآيات المباركة: فأما الجانب الأول فهو الثبات على المبدأ، وعدم الخضوع والضعف والانقياد لباطلهم، فالمؤمن لا ينهار عزمه

(١) ميزان الحكمة، محمدي الري شهري، ٧: ٨.

ولا تتضعضع إرادته مهما قوي التكذيب وازدادت التحديات التي يواجهها؛ ذلك أنه عزيز بعزة الله سبحانه، ومن يكن كذلك فليس في سجلّ حياته للذل محل ولا مقام: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الله فوّض إلى المؤمن كل شيء، إلا إذلال نفسه»[2].

وأما الجانب الآخر فيتمثل في أن يبيّن المؤمن لأهل الضلالة المكذّبين أنه ليس في حاجة إليهم، ولا تحرّكه نحو هدايتهم مصلحة شخصية ما، فلكل طرف أعماله التي هو مسؤول عنها، بل هم المحتاجون، لأجل نجاتهم وسعادتهم، إلى هدايته وجهوده التي يبذلها في سبيلهم. وهذا أسلوب قرآني معروف تحدثت عنه آيات عدة في كتاب الله العزيز، منها الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3].

هذه الآيات الكريمة التي هي محل كلامنا جاءت، إذًا،

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.
(٢) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي، ١: ٢٣٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٥.

تعلّم النبي ﷺ كيفية التعامل الرسالي الأفضل مع أولئك الناس، لأنهم بهذا الأسلوب سينقادون إلى الحق من منطلق كونهم باحثين عن مصالحهم، كسائر الناس، ومصالحهم هذه إنما تكمن في اتّباع النبي ﷺ والأخذ بمنهج الحق الذي جاء به. وبناءً على ذلك، لا تكون هذه الآيات متنافية على الإطلاق مع آيات وجوب الأمر بالمعروف أو آيات وجوب الجهاد حتى تكون منسوخة كما قيل.

الدرس الثالث:

ذهب بعض المفسرين[١] إلى أنّ السبب في عدم استفادة هؤلاء شيئًا من استماعهم للقرآن ودعوة النبي ﷺ ومن مشاهدتهم المعجزات كامن في كونهم لم يكونوا يحملون في دواخلهم نيات صادقة للاستفادة من كل ذلك، بل كان كل همّهم منصبًّا على العثور على ثغرات في كلام النبي ﷺ وسلوكه ينفذون منها لأجل تكذيبه والتصدي لدعوته.

وإذا كان هذا هكذا حقًا فمن الجدير بنا أن ننتبه لنيّاتنا حينما نودّ الإقبال على الأعمال الصالحة التي هي أساسًا

(١) كصاحب «الأمثل»، ٦: ٢٥١.

وسائل تقرّبنا إلى ربنا (جلّ شأنه)؛ ذلك أنّ هذه الوسائل إنما تكون ذات أثر حقيقي حينما تكون منبعثة من نيّة خالصة صادقة، فالصلاة مثلًا لن تحقق أثرها في حياتنا، ولن تنهانا عن الفحشاء والمنكر، إلا إذا أقمناها راغبين، بصدق وإخلاص، في الاتصال الحقيقي بربنا والعروج بأرواحنا إليه، وليس لمجرد إسقاط ما افترضه علينا وأدائه كيفما كان!

وهكذا الحال فيما يرتبط بالدروس والمحاضرات والكتب والمواقع الإلكترونية الدينية، فهي لا تجدي في انتشال الإنسان من أوحال الضلالة والسير به في طريق الهداية إذا أقبل عليها غافلَ القلب معرضًا، أو مستهدفًا إحصاء العيوب والعثرات التي تشتمل عليها، بل لا محيص له عن نيّة الاهتداء والاستفادة منها؛ كيما يحقق الله تعالى له مراده ويوصله إلى مقصوده، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «على قدر النيّة تكون من الله العطيّة»[1].

الدرس الأخير:

أوضحت الآية الأخيرة أنّ الحالة التي وصل إليها هؤلاء

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٢٨١.

- وهي حالة عدم استفادتهم مما يسمعون أو يرون من الحق - لم تكن بظلم من الله لهم، بل بظلمهم أنفسَهم، إذ أعرضوا عن الحق واتّبعوا الشهوات، فعميت قلوبهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، وهذه الحالة ينبغي لنا أن نكون منها على حذر شديد، لئلا نقع فيها ونحن غافلون.

لقد شاءت الحكمة الإلهية لهذا الإنسان أن يُخلق مزودًا بالعقل الذي يميّز به بين الخير والشر، والحق والباطل، وأرسل له الأنبياء والمرسلين، وأنزل له الكتب السماوية؛ لكي يسير هذا الإنسان في طريق التكامل والتسامي، ويتخذ من هذه الحياة الدنيا وإمكاناتها المتنوعة وسائله التي تعينه على قطع طريقها في مسير متصاعد على الدوام إلى الأعلى، حيث القيم الرفيعة والأهداف الإلهية السامية. فإذا اختار هذا الإنسان التكذيب بالحق، وحرّك خطواته في طرق الضلالة والانحراف، فإنه بهذا يكون قد وضع نفسه في غير الموضع الذي خُلقت له، وحرمها سعادة الدارين، ومنع عنها النعيم الخالد الذي أراده الله تعالى لها، وبذا يكون قد ظلم نفسه

(١) سورة يونس، الآية: ٤٤.

ظلمًا بيّنًا فاحشًا، وعاقبة الظلم لا يختلف عاقلان في فداحتها ووخامتها. ومن الملاحظ أنّ عددًا غير قليل من الروايات الشريفة أشار إلى ذلك بعبارات مطلقة تشمل ظلم الآخرين وظلم النفس أيضًا، كقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الظلم ندامة، والطاعة قرة عين»[١]، وقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من ظلم عظمت صرعته»[٢]، وكذلك أيضًا قول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «الظلم في الدنيا هو الظلمات في الآخرة»[٣].

(١) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي، ٢: ٧.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٢: ٦.

٢ - العمل على الشاكلة

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾[١].

تتحدث الآية الشريفة عن وجود صلة وثيقة بين عمل كل إنسان منّا و«شاكلته»، والشاكلة هي الطبيعة والسجيّة والطريقة، فثمة أناس تساعدهم طبيعتهم على فعل الخير، فتجدهم مدفوعين من دواخلهم إلى الأعمال الصالحة الخيّرة ذات المردود الإيجابي عليهم وعلى مجتمعاتهم، وهناك في المقابل أناس طبيعتهم تجعلهم ينشدّون كثيرًا لشهواتهم، فتراهم ميّالين إلى إشباعها وإجابة ما تدعوهم إليه غرائزهم ورغباتهم، وربما يوقعهم هذا في بعض المنكرات والمحرّمات.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

لكن من المهم أن نلحظ أنّ القضية - في جانبيها الإيجابي والسلبي - ليست بنحو العلّيّة التامة، فيكون الإنسان مجبورًا على الاستجابة لما تدعوه إليه سجيته، ولا يظل لإرادته البشرية أي موقع أو تأثير. إذ لو كان الأمر هكذا لما كان هناك معنى لإرسال السماء للرسل والأنبياء وإنزال الكتب السماوية، ولما عُرف إذ ذاك معنى للثواب والعقاب أيضًا. وإنما القضية هي بنحو الاقتضاء فحسب، أي أنّ من الطبائع البشرية ما يقتضي الخير ومنها ما يقتضي الشر، فهذه تدعو إلى سبيل الرشاد، وتلك تدعو إلى سبيل الغيّ، وليس لها أكثر من أن تدعو، وتظل إرادة الإنسان بعدئذ هي المسؤولة عن إيجاد الشرائط ورفع الموانع كيما يؤثر هذا المقتضي وتتحقق بعدئذ النتيجة المنتظرة.

نعم، إنّ كل إنسان منّا يعمل وفق مقتضى شاكلته، وهو سيُجزى لاحقًا على عمله، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشر، وسيكون الجزاء من الرب العليم، الذي هو ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾، ومن الواضح أنّ معرفة الأهدى سبيلًا هي قضية أصعب بكثير، بمقاييسنا البشرية، من معرفة المهتدين بعامة، لكنّ الله تعالى لا يعجزه شيء، ولا يخرج أي معلوم عن طوق علمه.

ونتوقف، بعد هذا، عند أبرز فوائد الآية المباركة:

الفائدة الأولى:

الحديث هنا عن «الشاكلة» ليس بالضرورة حديثًا عن شيء مفروض على الإنسان بنحوٍ لا يملك له دفعًا ولا عنه تحولًا، ففي هذه الشاكلة وتكوينها موقع كبير لإرادة الإنسان واختياره، ومن هنا تبرز المسؤولية الكبيرة الملقاة على الإنسان، فردًا ومجتمعًا، فيما يرتبط بهذه القضية بجانبيها الإيجابي والسلبي. لأجل هذا نجد الإسلام حريصًا، من الجانب السلبي، على عدم تكوين الإنسان شاكلةَ شر عنده، فنراه يكرر تحذيراته من أن تتحول الذنوب إلى عادة متكررة؛ لأنها حينئذ ستقود صاحبها إلى الخسران المبين، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ العبد كلما أذنب ذنبًا حصل في قلبه نكتة سوداء حتى يسودّ قلبه»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام مثلًا أنه قال: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبدًا»[٢].

الوقوع في الذنب، إذًا، شيء، والإصرار على الذنب

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٣٣٤.
(٢) نفسه ٧٠: ٣٢٧.

شيء آخر، ولا ريب في أنّ لهذا الإصرار خطورة عظيمة على نفسية المذنب وقلبه، إذ لربما يقوده إلى تكوّن شاكلة سيئة تقتاده إلى حيث الخسارة والهلاك.

وفي الجانب الإيجابي، نجد الإسلام حريصًا أيضًا على دعوة أتباعه إلى تكرار العمل الخيّر، مهما كان حجمه ضئيلًا وأثره محدودًا، إذ أنّ التكرار يجعل الخير عادةً، ومع تحقق العادة ستتشكل الشاكلة الخيّرة عند فاعل الخير. ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «قليل من عمل مدوم عليه خير من عمل كثير مملول منه»[١]، وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دام عليه العبد وإن قلّ»[٢].

الفائدة الثانية:

التناسب بين عمل الإنسان وشاكلته تناسبٌ يُفترض فيه - حسبما تقتضيه طبائع الأشياء - أن يكون موجودًا على الدوام، فيك كل زمان وكل مكان. وعلى هذا، فالشاكلة الإيمانية لا

(١) بحار الأنوار ٦٨: ٢١٩.
(٢) نفسه ٦٨: ٢١٦.

بد لها من أن تظهر وتتبدى في أعمال الإنسان المؤمن في كل حالاته (لا في حالات هدوئه فقط دون حالات الغضب والانفعال والتوتر)، ومع كل الذين يتعامل معهم (وليس مع خصوص أصدقائه والناس الذين يجاملهم اجتماعيًا، في حين يلقى منه أفراد أسرته كل ضيم وإيذاء)، وفي كل الأزمنة (وليس في بعض الأزمنة الخاصة كشهر رمضان المبارك دون الأزمنة الأخرى)، وفي كل الأماكن (لا أن يكون المؤمن مؤمنًا في سلوكه حين يكون في بلده وبين معارفه من المؤمنين، لكنه إذا سافر إلى بعض بلاد الغرب مثلًا تغيّر سلوكه واختلفت أخلاقه!).

إنّ المؤمن المتأثر حقًا بالشاكلة الإيمانية حريص على أن تكون أعماله كلها مطابقة لهذه الشاكلة، ولا يرضى بأن يتخلف عمله في أي مجال عنها؛ لأنه يعلم أنّ الثواب لا يُنال إلا بالعمل، مثلما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «بالعمل يحصل الثواب لا بالكسل»[1].

أما اختلاف العمل عما تقتضيه الشاكلة فيدل على أنّ هذه

(١) ميزان الحكمة ٧: ٨.

الشاكلة لم تتكوّن مثلما ينبغي، أي أنّ الإيمان لم يتجذر بعدُ في النفس تجذرًا حقيقيًا يؤثر في الشخصية، ويطبعها بطابعه الخاص، ويحركها في الاتجاه الذي يتناسب معه.

الفائدة الثالثة:

إذا كانت لكل إنسان منّا شاكلته الخاصة به، منها ينطلق في أعماله ويتحرك في كل حياته، وإذا كانت شاكلة كل فرد تختلف عن شاكلة الآخر في كثير أو قليل من الخصائص والمميزات، فلا معنى، إذًا، لقياس الناس بعضهم على بعض، وعقد المقارنات بينهم، فيقول الزوج مثلًا لزوجته: «لماذا لا تكونين مثل فلانة؟» وتقول الزوجة مثل ذلك لزوجها، ويريد الوالدان من ابنهما أن يكون في تفوّقه الدراسي مثلًا كابن فلان!

إنّ المنجى من كثير من المشكلات والتوترات الاجتماعية الناشئة من هذا النحو من التفكير هو الرجوع إلى حقيقة اختلاف شاكلة كل إنسان عن غيره، وليس من شأن البشر، ولا ينبغي لهم، أن يكونوا نسخًا مكرورة من بعضهم! روي عن الحبيب المصطفى ﷺ أنه قال: «الأخلاق منايح من الله

عز وجل، فإذا أحب الله عبدًا منحه خلقًا حسنًا، وإذا أبغض عبدًا منحه خلقًا سيئًا»[١].

ليس المراد من هذا الكلام حصر كل صفات الإنسان في صفاته الموروثة التي جُبل عليها، فلا شك أنّ هناك في كل فرد منا صفات مكتسبة أيضًا، أي أنّ هناك جانبًا يمكن التحكم والتأثير فيه ولو في مدى طويل من الزمن. وهذا ما أشار إليه حديث الإمام الصادق عليه السلام: «الخلق منحة يمنحها الله من شاء من خلقه، فمنه سجيّة ومنه نيّة»، فسأله الراوي: «فأيهما أفضل؟» فقال عليه السلام: «صاحب النيّة أفضل؛ فإنّ صاحب السجيّة هو المجبول على الأمر الذي لا يستطيع غيره، وصاحب النيّة هو الذي يتصبّر على الطاعة فيصبر، فهذا أفضل»[٢].

صحيح، إذًا، أنّ هناك صفات مكتسبة في الإنسان، لكنّ هذه لا تظهر في شخصيته منفصلة عن صفاته الأصلية الكامنة فيه بالسجيّة، فما الإنسان إلى مزيج من هذا وذاك، أو هو نتاج ذلك كله، وهذا يعود بنا إلى فكرة مراعاة الفوارق واختلاف الشخصيات من فرد إلى آخر.

---

(١) ميزان الحكمة ٣: ١٤٦.
(٢) ميزان الحكمة ٣: ١٤٥.

الفائدة الرابعة:

ينبّهنا قوله سبحانه: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ على أنّ المهم في موضوع الهداية هو أن يكون أحدنا مهتديًا في المنظور الإلهي، لا منظور الناس، نعم، الأهمية كلها تكمن في أن يراه الله سبحانه وتعالى مهتديًا حقًا، فهذا ما ينفعه في دنياه وأخراه، وهذا هو مناط النجاة الواقعية.

والطريق الواضح الموصل إلى هذه النجاة هو الإخلاص، فبه تُقبل أعمالنا، وبه ننال القرب من ربنا. عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «إنك لن يُتقبل من عملك إلا ما أخلصت فيه»[1].

أما أن يحسب الإنسان أنّ كونه مهتديًا في أنظار الناس يجديه فهذا سراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فلن ينفعه يومَ القيامة أنْ كان الناس من حوله يعدّونه من الصالحين المتقين، ويرونه قد ظفر من الهدى بحظ عظيم، فكل ذلك لا يعدو أن يكون وهمًا جميلًا قد يخدع به نفسه في الحياة الدنيا، وربما ينتشي فرحًا بوهمه الورديّ هذا،

(١) نفسه ٧: ٢١.

حتى إذا انجلت عن عينيه الغشاوة الدنيوية رآه هباءً منبثًّا لا يفيده في شيء.

الفائدة الأخيرة:

تشي خاتمة الآية الشريفة بأنّ على المؤمن ألّا يقنع بأن يكون مهتديًا فحسب، بل عليه أن يبذل وُسعه ليكون ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾. فالحياة الدنيا هي دار العمل، وهي مزرعة الآخرة، ولا محيص لنا عن الجدّ في عملنا ذاك، وزراعتنا هذه، فما دام في نطاق قدرتنا أن نحصل على المحصول الوافر والفوز العظيم عند ربنا فلماذا نرضى بأنفسنا بالقليل؟ إنّ هذا هو منطق القرآن الواضح في آيات متعددة منه، كقوله جلّ جلاله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[2].

إنّ من العُجاب أنْ نحرص في دنيانا على التنافس الشديد في مجال تجميع الأموال وتكديسها، ولا يكون عندنا أقلّ درجات ذلك الحرص فيما يرتبط بآخرتنا وأعمالنا الصالحة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.
(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

لأجلها، فترانا زاهدين في هذا المجال، فنرضى بأدنى درجات الهداية، وأقلّ الأعمال الصالحة وأيسرها. ورد عن الإمام علي الهادي عليه السلام أنه قال: «الناس في الدنيا بالأموال، وفي الآخرة بالأعمال»[١]. في حين أنّ القرآن الكريم ينقل عن عباد الرحمان أنهم يدعون ربهم بقولهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[٢]، فليس يكفيهم أن يكونوا في عداد المتقين حتى يكونوا لهم أئمة وقادة في الهدى.

(١) ميزان الحكمة ٧: ٨.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

٣ - التثبيت والإضلال

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[١].

تنصّ الآية الكريمة على أنّ الله (جلّ وعزّ) يمنح المؤمنين تثبيتًا على الحق والهدى بواسطة «القول الثابت» الذي هو - بناءً على ما ذكره بعض المفسرين - «كلمة الإيمان لأنه ثابت بالحجج والأدلة»[٢]، ويكون هذا التثبيت الإلهي للمؤمنين موجودًا في الدنيا والآخرة:

فأما في الحياة الدنيا فللتثبيت معنيان: المعنى الأول هو

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي، ١٢: ٥٤.

التثبيت في المواجهة الداخلية للمؤمن مع أهوائه النفسية وتسويلات الشيطان، وهذه المواجهة هي الجهاد الأكبر الذي يخوضه كل مؤمن صادق الإيمان. والمعنى الآخر هو التثبيت في المواجهة الخارجية مع الأعداء، أولئك الذين يهدفون إلى محاربة الإيمان والكسر من شوكة المؤمنين.

وأما التثبيت في الآخرة فقد دلّت بعض الروايات واختار جمع من المفسرين أنّ المراد من «الآخرة» هنا ليس الحياة الخالدة التي تتبادر إلى أذهاننا من هذه الكلمة، بل المراد إما أن يكون لحظة النزع والاحتضار، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الشيطان ليأتي الرجلَ من أوليائنا عند موته عن يمينه وعن شماله ليضلّه عما هو عليه، فيأبي الله عز وجل له ذلك، وهو قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾»[1].

وإما أن يكون المراد من «الآخرة» هو عالم القبر، وفي هذا روايات عدّة، منها أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله، فذلك قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي

(١) الأمثل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ٧: ٣٦١.

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»[١]، ومنها ما عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «إذا وُضع الرجل في قبره أتاه ملكان، ملك عن يمينه وملك عن شماله، وأقيم الشيطان بين يديه، عيناه من نحاس، فيقال له: ما تقول في هذا الرجل الذي خرج من بين ظهرانيكم يزعم أنه رسول الله؟ فيفزع لذلك فزعة فيقول إن كان مؤمنًا: محمد رسول الله، فيقال عند ذلك: نم نومة لا حلم فيها، ويفسح له في قبره تسعة أذرع، ويرى مقعده من الجنة، وهو قول الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾، وإن كان كافرًا قالوا: من هذا الرجل الذي كان بين ظهرانيكم يقول إنه رسول الله؟ فيقول: ما أدري، فيخلّى بينه وبين الشيطان»[٢].

والذي دعا هؤلاء المفسرين إلى صرف كلمة «الآخرة» عن معناها المتبادر منها واختيار أنّ المراد منها هنا وقت الاحتضار أو عالم البرزخ في القبر، هو ظاهر معنى الفعل «يثبّت»؛ لأنّ التثبيت إنما هو إعطاء الثبات في مقام يمكن أن يُتصور فيه الخطأ والزلل، وهذا لا يمكن أن يكون في الحياة

(١) الميزان ١٢: ٦٥.
(٢) الميزان ١٢: ٦٤- ٦٥.

الآخرة؛ لأنها دار مجازاة وثواب وعقاب، وليست دار خطأ وزلل. لكن العلّامة الطباطبائي (قُدست روحه) يرى أنّ من الممكن أن ننظر إلى القضية من ناحية أخرى، بأن نلحظ أنّ كل شيء له ثبات في هذا الوجود فإنما ثباته هو بالله سبحانه وتعالى حتى إذا لم يكن المقام مقام زلل، فلا فارق من هذه الناحية بين عالم الآخرة بالمعنى المتبادر من الكلمة، وبينه بمعنى وقت الاحتضار أو عالم البرزخ. وتكون - بناءً على هذا - الروايات الشريفة التي سبق ذكرها محمولة على أنها في مقام التطبيق وذكر الأمثلة، وليست في مقام بيان الدلالة الحصرية لكلمة «الآخرة».

وأيًا كان الأمر، فتقول الآية بعده: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهؤلاء الظالمون - بقرينة المقابلة مع «الذين آمنوا» - هم الكافرون المنحرفون عن الصراط المستقيم، الذين اختاروا لأنفسهم طريق الظلم، وارتضوه نهجًا لهم في الحياة؛ لذا استحقوا من الله تعالى الإضلال، أي أن يتركهم وظلمهم، من دون أن يوفقهم للهداية، فالإضلال إنما هو جزائي، جوزوا به على سوء اختيارهم، وليس إضلالًا إلهيًا ابتدائيًا، تعالى الله عنه علوًا كبيرًا.

وتُختتم الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، وهي خاتمة مرتبطة بما تقدم الحديث عنه في الآية من التثبيت والإضلال، أي أنّ تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين إنما يجريان وفق المشيئة الإلهية التي ليس لها دافع، ولا يحول دونها مانع.

هذا، ولنا مع الآية المباركة وقفات للاستفادة منها:

الوقفة الأولى:

أفادت الآية الشريفة أنّ التثبيت الإلهي في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنما يكون للناس الذين اختاروا أن يكونوا مؤمنين، كما أنّ الإضلال إنما هو للّذين استحبوا الكفر والظلم، وهذا معناه أنّ للإرادة الإنسانية أثرًا مهمًا أساسيًا في الهداية والضلالة.

لا معنى، بناءً على هذا، لأن يتذرع بعض الناس، في كونهم لا يتّبعون طريق الهدى، بكون الله سبحانه لو شاء أن يهديهم لاهتدوا! ولا موقع، أيضًا، لمحاولة تسويغ الانحراف والضلال بعوامل غير إرادة الإنسان واختياره الحرّ، كأنْ يُسند ذلك إلى عامل البيئة والمحيط مثلًا، أو عامل التربية، أو العامل الوراثي، فكل هذه لا تعدو أن تكون مقتضيات

ومؤثرات محدودة المدى والعمق، وليس من شأنها على الإطلاق أن تلغي أثر الإرادة الإنسانية أو تقوم مقامها.

نعم، على المرء منّا أن يعود إلى ذاته، وأن يتحمل المسؤولية عن نفسه، فيقوّي عزمه ويرسّخ إرادته؛ ليسير رابطَ الجَنان، واثق الخَطْو، في طريق الخير، ويهرب من كل ما من شأنه أن يجرّه إلى النار، امتثالًا لحديث سيد الأنبياء وخاتم المرسلين ﷺ: «اطلبوا الخير دهرَكم، واهربوا من النار جهدَكم، فإنّ الجنة لا ينام طالبها، وإنّ النار لا ينام هاربها»[1].

الوقفة الثانية:

إذا كان للإرادة الإنسانية ما تقدم بيانه من أثر في جعل الإنسان مهتديًا أو ضالًا، فإنّ ذلك لا يمثّل سوى وجه واحد من الحقيقة. ولا بد - لكي تكتمل الرؤية وتتضح - من الانتباه لوجهها الآخر أيضًا، وهو يتمثل في أنّ المرء لا يستطيع - مهما فعل واجتهد - أن يكون مهتديًا إلا أن تناله الرحمة الإلهية، ويشمله الله سبحانه وتعالى بواسع فضله ومغفرته،

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٠١.

فبذا - فقط - يهتدي وينجو من تبعات الضلالة والضياع. قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١]، وجاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله جلّ جلاله: عبادي، كلكم ضالّ إلا من هديتُه، وكلكم فقير إلا من أغنيته، وكلكم مذنب إلا من عصمته»[٢].

يترتب على هذا أنّ من الخطأ أنْ يُعجب المرء بنفسه متى ما وجدها مهتدية وسائرة في طريق الحق والخير، فما هذا الهدى بناتج من الإنسان نفسه، ولا هو من صُنعه وإيجاده، وإنما هو بفضل من ربه ورحمة وعناية. وإنّ من أكبر الأخطار المحدقة بالمؤمن أنْ يكون معجبًا بنفسه نتيجة إيمانه وصلاحه، حتى لقد ذهبت بعض الروايات الشريفة إلى أنّ المعصية خير لهذا الإنسان من الطاعة المقترنة بالعُجب، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «سيّئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك»[٣].

وجاء أيضًا في بعض الروايات أنّ الله تعالى قد لا يوفّق

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٨.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٣٢٧.
(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٤٦ من قصار الحكم.

بعض عباده لشيء من العبادات المستحبة حمايةً لهم من الوقوع في مزلق العُجب، ففي الحديث القدسي: «أنا أعلم بما يصلح به أمر عبادي، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادته فيقوم من رقاده ولذيذ وساده، فيجتهد ويتعب نفسه في عبادتي، فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين نظرًا مني له وإبقاءً عليه، فينام حتى يصبح فيقوم ماقتًا لنفسه زاريًا عليها، ولو أخلّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله من ذلك العجب بأعماله، فيأتيه ما فيه هلاكه؛ لعُجبه بأعماله ورضاه عن نفسه، حتى يظن أنه قد فاق العابدين، وجاز في عبادته حدّ التقصير، فيتباعد مني وهو يظن أنه تقرّب إليّ»[1].

الوقفة الأخيرة:

ذِكْر قضية «تثبيت» الله سبحانه للّذين آمنوا ينبّه المؤمنين جميعًا على حقيقة مهمة وخطيرة، هي حقيقة أنّ عليهم أن يحرصوا بشدة على الثبات على الاستقامة والمحافظة عليها. فليس وصولهم إلى مقام الإيمان والعمل الصالح معناه بالضرورة أنهم باقون مدى أعمارهم فيه، فكم من إنسان

(١) ميزان الحكمة ٦: ٥١.

وصل إلى هذا المقام الرفيع، لكنه لم يلبث بعد ذلك أنْ انقاد لهواه ورضخ للشيطان والنفس الأمارة بالسوء، فانحدر إلى أسفل سافلين، وهذا مثال قرآني: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾[1].

لقد تناولت الروايات الشريفة هذا المعنى إذ قسمت الإيمان قسمين: فمنه ما هو ثابت راسخ لا يزول، ومنه أيضًا ما هو معرّض للانتهاء والتلاشي، فكأنه كان عاريةً أو وديعةً إلى وقت محدّد فقط. جاء عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «فمن الإيمان ما يكون ثابتًا مستقرًا في القلوب، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم»[2]. وروى محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام أو الصادق عليه السلام قوله: «إنّ الله خلق خلقًا للإيمان لا زوال له،

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥ - ١٧٦.
(٢) بحار الأنوار ٦٦: ٢٢٧.

وخلق خلقًا للكفر لا زوال له، وخلق خلقًا بين ذلك فاستودع بعضهم الإيمان، فإن شاء أن يتمّه لهم أتمّه، وإن شاء أن يسلبهم إياه سلبهم»[١].

إنّ كون إيمان المؤمنين معرّضًا للزوال في وقت ما ومحتاجًا إلى التثبيت، لينبغي له أن يستثير في نفوس الجميع الإحساس بالمسؤولية الكبيرة عن ضرورة توفير تلكم الوسائل والأجواء التي من شأنها أن تحقق لإيمان الناس في مجتمعاتنا المسلمة الرسوخ والتعمق والبقاء، وضرورة محاربة كل الأجواء والممارسات والتصرفات الاجتماعية التي قد تساعد على إضعاف الإيمان في النفوس والتقليل من تأثيره في الناس، ولربما تقودهم إلى الابتعاد الكامل عنه وعن مقتضياته.

(١) نفسه ٦٦: ٢٢٤.

٤ - اتخاذ عدم الدليل دليلًا

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

تنقل لنا الآية المباركة موقفًا من المواقف الكثيرة التي كان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يواجهها من كفار قريش في سياق دعوته إياهم إلى الحق، فهم كانوا إذا تُليت على مسامعهم الآيات القرآنية المتحدثة عن المعاد والثواب والعقاب لا يمتلكون أمامها حجة إلا أن يقولوا: ﴿ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي اثبتوا لنا - يا أيها المسلمون - صدقَ هذا الكلام عن يوم القيامة بأن ترجعوا آباءنا الأموات إلى

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٥.

الحياة من جديد؛ كي نسألهم عمّا رأوه بعد مماتهم، ونسمع منهم ما إذا كان حديث القيامة حقًا أم باطلًا!

ومما يسترعي الانتباه في التعبير القرآني هنا أنه عدّ كلامهم هذا «حُجّة» لهم يحتجون بها على النبي ﷺ والمسلمين، مع أنه في الواقع كلام ضعيف متهالك لا يصلح أن يكون حجة إطلاقًا، والغرض من هذا التعبير هو السخرية والتهكم، فهؤلاء ليست لديهم حجة يمكنهم الاستناد إليها؛ لذا يتخذون من عدم الحجة حجة، ومن عدم الدليل دليلًا!

ونتوقف، بعد هذا، في محطات عدة من الآية الشريفة:

المحطة الأولى:

من مظاهر الضلالة الاختيارية عند أناس كثيرين أنك تجد وسائل الهداية متاحة لهم بين أيديهم، دونما صعوبة تحول دون أخذهم بها، ومع هذا تراهم يضربون عنها صفحًا، ويلوون عنها جِيدًا، ويختارون البقاء في شقاء ضلالتهم وانحرافهم عن طريق الهدى. وفي الآية نموذج واضح لهؤلاء الناس الذين كانت أسباب الهداية في متناول أيديهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، لكنهم ما أخذوا بها ولا رغبوا فيها.

نعم، هو هكذا القرآن الكريم، كتاب هداية، شأنه أن يُخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى سواء السبيل، لكن الناس - والمسلمون ليسوا مستثنين - كثيرًا ما يغفلون عنه ويتناسون هدايته، فيتخذون لأنفسهم عنه بدائل وطرائق أخرى. ومنهم من لا يشاء أن يصرّح برغبته في ترك القرآن، فتراه يفسّره وفق ما تقتضي أهواؤه، ويوجّه آياته الكريمة في الوجهات التي يشاؤها، والقرآن بطبعه حمّال ذو وجوه، يقبل التوجيهات المختلفة التي قد يُوجّه بها، فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال»[1].

إنّ الحديث عن التقصير في الاستفادة من وسائل الهداية المتاحة بين أيدينا يقتضي تذكير أبنائنا وبناتنا من الشبّان والشابات بأهمية الاستفادة المثلى من الإمكانات التي أتاحها هذا العصر لهم، مثل القنوات الفضائية، والشابكة (أي شبكة الإنترنت)، ووسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، في طريق الهداية. فالملاحظ أنّ عددًا غير قليل منهم قد لا يستفيد من

(١) تفسير نور الثقلين ٦: ٤٧٥.

هذه الإمكانات الكبيرة الاستفادة المرجوّة التي تحقق التقدم المعرفي والتطور الثقافي والتربية الخلقية والبناء الروحي السليم، في طريق الهداية الحقة المطلوبة، بل يتخذها وسائل للثرثرة الفارغة وتضييع الأوقات فيما لا يجدي نفعًا، هذا إذا لم يتخذها وسائل لإقامة العلاقات غير الشرعية بين الجنسين وطريقًا للفساد الخلقي والانحراف الديني، وفي هذا تكمن الخسارة الحقيقية.

المحطة الثانية:

قول هؤلاء الكافرين: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ ليست فيه أية حجة لهم، لكنهم، على الرغم من هذا، اتخذوه لأنفسهم حجة! وهذا شأن المفلسين فكريًا في كل حين ومحلّ.

إنّ القرآن الكريم ببيانه التهكمي هذا يحذّرنا من كثير من الادعاءات والشعارات الفكرية البرّاقة التي قد تتلبس بلبوس الحِجاج والاستدلال في ظاهرها، لكنها في واقعها لا تحمل في داخلها سوى الخواء والزيف والموات.

بمثل هذا الحذر ينبغي للمسلم أن يتلقى الدعوات التي تنادي في زماننا هذا بتجديد الفكر الديني والقراءة الثانية أو المعاصرة للإسلام ونقد العقل الإسلامي وما شابهها من

عناوين جذابة ولافتة للانتباه. فهي في بعض الحالات - وليس في جميعها - قد لا تقوم على أسس فكرية متينة، ولا تحمل في داخلها استدلالات منهجية قوية، ولا تمتلك أدلة وحججًا حقيقية، إنما هي شعارات تُطلق، وشبهات تُثار لخداع البسطاء من الناس الذين تختلط أمامهم الحقيقة بالوهم، والحق بالباطل. وصدق الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إذ قال: «إنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال، ودليلهم العمى»[1].

المحطة الثالثة:

ثمة أناس يأخذون بالنقاش والجدال لا لأنهم يريدون الاهتداء حقًا، بل لمجرد الجدال، فهم يتذرعون بكونهم باحثين عن حجج وأدلة لكي يستمروا في ضلالهم. هكذا كان أولئك الذين تتحدث عنهم الآية الشريفة، فما كان اقتراحهم الإتيان بآبائهم الأموات اقتراحًا منبعثًا من رغبة صادقة في

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣٨.

التوصل إلى الحق، بل كانت حالتهم تدل على أنهم «إذا كُشف لهم عن مشهد إحياء الأموات فرضًا فرأوه بأم أعينهم فإنهم سيقولون مباشرة: إنه سحر، كما قالوا ذلك في الموارد المشابهة»[١].

أمثال هؤلاء الناس يتعيّن على المؤمن أن يحذرهم وأن يتجنب تضييع وقته وجهده في محاولة هدايتهم؛ لأنهم لا يعنيهم الهدى والضلال، ولا يشغل بالهم أن يبحثوا واقعًا عن طريق النجاة، وإنما ينصبّ اهتمامهم على إثارة أجواء الجدل والمحاججة المتبادلة كيما يتخذوها ستارًا لانحرافهم وضلالهم. روي أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال لعمّار بن ياسر (رضوان الله عليه) وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلامًا: «دعه يا عمّار، فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا، وعلى عمد لبس على نفسه؛ ليجعل الشبهات عاذرًا لسقطاته»[٢].

المحطة الأخيرة:

من عظائم الأخطاء التي قد يقع فيها الإنسان أنْ يتخذ من

(١) الأمثل ١٦: ١٦١.
(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٤٠٥.

المعرفة الحسية سبيلًا وحيدًا للإدراك، فيؤمن بنظرية للمعرفة (الإبستمولوجيا) ضيقة محدودة الأفق ترى أنّ حواس الإنسان هي وسيلته الوحيدة المنحصرة في تحصيل المعرفة، فلا معرفة صحيحة إلا تلك المتولدة من حاسة من الحواس البشرية الخمس، وما عدا ذلك خرافات وأوهام. هذا الخطأ العظيم هو الذي وجدناه حاضرًا عند أولئك الكفار الذين ذكرتهم الآية المباركة، فهم - في ظاهر ادعاءاتهم - ما كانوا مستعدين للإيمان بالمعاد إلا إذا رأوا آباءهم الأموات عيانًا وقد عادوا إلى الحياة، واستمعوا إلى كلامهم بأسماعهم ليعرفوا منهم نبأ البعث والنشور بعد الموت! لا بد، إذًا، من المعرفة الحسية، وليس عنها بديل.

هذا المنطق المادي نفسه هو المسؤول الأول عن التردي المعرفي الذي شهدته البشرية في الأزمنة الحديثة المتأخرة حينما تمسكت بأنّ الحقيقة ليست إلا ما تقود إليه التجارب المخبرية وتُنتجه الدراسات المعتمدة على المعطيات الحسية وحدها دون سواها.

بيد أنّ المؤمن الحقيقي يؤمن بطريقين آخرين للمعرفة - غير الإحساس - وهما: العقل والوحي. فأما العقل فهو

طريقه للإيمان بالله تعالى وبرسله وبالمعاد؛ لذا فهو أساس الحساب والجزاء في يوم القيامة. قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغكم عن رجل حُسن حال فانظروا في حسن عقله، فإنما يجازى بعقله»[١]، وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إنما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[٢].

وأما الوحي فهو الرابط بين هذا الإنسان وأوامر السماء وتشريعاتها، ولولاه لما تمكن الإنسان من الوصول إلى سعادته الحقة في دنياه وأخراه، فالإنسان أعجز من أن يتكفل بتحقيق السعادة الحقيقية للنوع البشري في هذه الحياة الدنيا، فكيف له أن يحققها في الحياة الأخرى؟ لذا يظل الإنسان - مهما زاد تقدمه في مدنيّته وتطوّره في العلوم الحديثة - محتاجًا إلى الرسل والأنبياء والكتب السماوية، وهذا هو ما أوضحه الإمام جعفر الصادق عليه السلام للزنديق الذي سأله عن الأنبياء والرسل قائلًا: «إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقًا صانعًا متعاليًا عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيمًا لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه ولا يباشرهم ولا يباشروه ويحاجّهم

(١) ميزان الحكمة ٦: ٣٩٩.
(٢) نفسه.

ويحاجّوه، فثبت أنّ له سفراء في خلقه، يدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه وثبت عند ذلك أنّ له معبّرين، وهم الأنبياء وصفوته من خلقه، حكماءَ مؤدبين بالحكمة مبعوثين بها، غير مشاركين للناس في أحوالهم، على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب. . .»[١].

وورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «فإن قال: فلم وجب عليهم معرفة الرسل والإقرار بهم والإذعان لهم بالطاعة؟ قيل: لأنه لمّا لم يكن في خلقهم وقواهم ما يكملون لمصالحهم، وكان الصانع متعاليًا عن أن يُرى، وكان ضعفهم وعجزهم عن إدراكه ظاهرًا، لم يكن بُدّ من رسول بينه وبينهم معصوم يؤدي إليهم أمره ونهيه وأدبه، ويقفهم على ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارّهم، إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون إليه من منافعهم ومضارّهم، فلو لم يجب عليهم معرفته وطاعته لم يكن لهم في مجيء الرسول منفعة ولا سدّ حاجة، ولكان إتيانه عبثًا لغير منفعة ولا صلاح، وليس هذا من صفة الحكيم الذي أتقن كل شيء»[٢].

---

(١) بحار الأنوار ١١: ٣٠.
(٢) بحار الأنوار ١١: ٤٠.

٥ - غلبة الشقوة

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾[١].

وردت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن يوم القيامة، حين توزن الأعمال، فمن ثقلت موازينه كان من المفلحين، ومن خفّت موازينه كان من الخاسرين ودخل جهنم خالدًا فيها. ويوجّه ربّ العزّة سؤالًا - من باب العتاب والتوبيخ - لهؤلاء: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[٢] و«الآيات» هنا هي إما الآيات القرآنية خاصةً، وإما ما يعمّها هي وسائر الأدلة على الله تعالى. ويكون الجواب عن السؤال بهذا الذي ذكرته الآية التي هي محل كلامنا.

(١) المؤمنون، الآية: ١٠٦.
(٢) المؤمنون، الآية ١٠٥.

يجيب هؤلاء الخاسرون ربهم بكون شقوتهم قد غلبت عليهم، و«الشقوة» بمعنى الشقاء أي خلاف السعادة، وهم معترفون بأنّ هذه الشقوة هي شيء قد اكتسبوه بإراداتهم واختاروه بأنفسهم، وليس أمرًا مفروضًا عليهم لا يستطيعون تغييره ولا يملكون له دفعًا.

ويظهر هذا الاعتراف مما يأتي:

أ - إضافتهم الشقوة إلى أنفسهم: ﴿شِقْوَتُنَا﴾، وهذا - كما يقول صاحب الميزان[1] - تلويح بأنّ لهم صنعًا في شقوتهم من جهة الاكتساب.

ب - قولهم في نهاية الآية: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾، فقد استعملوا صيغة اسم الفاعل، ولو أنهم أرادوا أنّ هذه الشقوة مفروضة عليهم فرضًا لاستعملوا صيغة اسم المفعول؛ كيما يبيّنوا كونهم مسلوبي الاختيار مقابل ما حلّ بهم.

ج - قولهم بعد هذه الآية مباشرةً: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾[2]، ومن الجليّ أنّه لا معنى لهذا الكلام

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٥: ٦٨.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٧.

لولا كونهم مختارين مريدين غير مجبرين على فعلهم وتصرفهم.

ويجمل بنا أن نقف على مواضع من الآية المباركة:

الموضع الأول:

على العاقل منّا أن ينتبه إلى معنى السعادة الحقيقية والشقاء الحقيقي، فالناس جميعًا باحثون بطبعهم عن سعادتهم وهاربون من شقائهم، وليسوا يحتاجون في هذا إلى تحريك أو إرشاد، لكن المشكلة تكمن عند كثيرين في تعيين ما تكمن فيه السعادة ويتمثل فيه الشقاء، فما أكثر الذين يحسبون أنّ السعادة تعني الاستكثار من الأموال والمناصب وطيّبات هذه الحياة الدنيا وأنّ الشقاء يكمن في عكس ذلك كله! غافلين عن كون هذه الدنيا وسيلة مؤقتة ومعبرًا زائلًا إلى الحياة الخالدة، حيث يواجه الإنسان مصيره النهائي: فإما سعادة حقيقية باقية، وإما شقوة دائمة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾[1].

(١) سورة القارعة، الآيات: ٦ - ١١.

إنّ المؤمن الحقيقي يعلم أنّ السعادة الحقة إنما هي بطاعة ربه، وأنّ الشقاء الحقيقي إنما يكون بالسير في طريق معصيته، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «لا يسعد امرؤ إلا بطاعة الله سبحانه، ولا يشقى امرؤ إلا بمعصية الله»(١).

وأهم العوامل وأخطرها في إبعاد الإنسان عن سعادته وإلقائه في مهاوي الشقاء هو حب الدنيا، فهو الذي يرغّبه في المعاصي ويسهّل له طريق اجتراحها، وفي هذا قال علي عليه السلام أيضًا: «سبب الشقاء حب الدنيا»(٢).

الموضع الثاني:

من الضروري أن يحذر أحدنا من «غلبة» الشقوة عليه، فكلنا قد نقع أحيانًا في الشقاء، نظرًا لضعفنا البشري، فنعصي الله تعالى، لكن المهم ألّا نبقى غارقين في أوحال المعصية، وألّا نصل إلى الحالة التي تكون فيها الشقوة «غالبة» علينا، أي أن تصبح «مَلَكَتنا» بتعبير صاحب التفسير الصافي، ولا يكون هذا إلا بأعمالنا القبيحة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير الآية محل الكلام: «بأعمالهم شقوا»(٣).

(١) ميزان الحكمة ٤: ٤٦١.
(٢) نفسه ٥: ١٣٣.
(٣) الميزان ١٥: ٧٦.

إنّ القلب الإنساني يتلوث بالعصية ويفسد بها، وإذا ظل المرء يُفسد قلبَه بإثقاله بمزيد من المعاصي فلا يلومنّ إلا نفسه حين ينتهي به الأمر إلى حالة غلبة الشقوة عليه، وإذ ذاك لا يبقى أمامه منجى من الخسران المبين. ورد في الخبر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كان أبي عليه السلام يقول: ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة، إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه، فيصير أسفله أعلاه، وأعلاه أسفله»[1].

الموضع الثالث:

يستفاد من الآية الكريمة أنّ الشقاوة من الممكن أن تتحقق حتى مع وجود التربية الصالحة، فعلى الرغم من الموقع المهم الذي تتبوّأه التربية الجيدة في تنشئة الأجيال الجديدة تنشئةً صالحةً حسنةً، فإنها ليست متيقّنة التأثير الكامل النهائي دومًا، بمعنى أنها - بتعبيرات الفلاسفة - ليست علة تامة للصلاح، بل هي مجرد مقتضٍ له، ولربما لا يؤثر هذا المقتضي أثره إذا لم تتوافر الشرائط المساعدة، أو توافرت بعض الموانع المانعة من التأثير.

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٥٤.

هؤلاء الكفار الذين تحكي الآية كلامهم يستعملون كلمة «الرب»: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا﴾، وهذه الكلمة تدل على اعترافهم بوجود تربية حقيقية متحققة من الله تعالى، ومع هذا فقد أعرضوا عنها باختيارهم ومالوا إلى ما تقتضيه شقاوتهم؛ ذلك أنّ «الربّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حدّ التمام»[١].

وإذا كان هذا هكذا، فليس من الحكمة، إذًا، أن يعتمد المرء على تربيته الصالحة لأولاده فيكون واثقًا كل الثقة من كونهم صالحين ملتزمين بأحكام دينهم وما تقتضيه الأسس الأخلاقية الصحيحة، ويدعوه هذا إلى عدم متابعة سلوكهم وتصرفاتهم، من باب اطمئنانه إلى أنهم لا يمكن أن يضلّوا أو ينحرفوا بعد كل هذه التربية الجيدة المؤثرة التي قدّمها لهم. إنّ احتمال الشقاء وارد دومًا، مهما كانت التربية صالحة ومفيدة، فكثيرًا ما يتغلب جذب الشهوات الدنيوية وإغراء لذائذها على ما يدعو إليه الدين وتقتضيه التربية، وقد قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام عن هذا: «من الشقاء أن يصون المرء دنياه بدينه»[٢].

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة «ربب».
(٢) ميزان الحكمة ٥: ١٣٦.

الموضع الأخير:

من المهم جدًا للإنسان إنْ هو وقع في الذنب ألّا يصرّ عليه، بل يبادر إلى الإقرار به والتراجع عنه قبل فوات الأوان. هؤلاء الكافرون قالوا كلامهم هذا الذي نقلته عنهم الآية الشريفة لأنهم - كما ذكر صاحب الميزان في تفسيره للآية - أرادوا الاعتراف والتراجع حيث لا يفيدهم اعتراف ولا تراجع. نعم، غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا، وظلوا فيها سادرين في ضلالاتهم، فلمّا غادروها وواجهوا موقف الحساب الأخروي اعترفوا وأقرّوا بتقصيرهم في حق أنفسهم ورغبوا في التراجع!

هذه الصورة البليغة المؤثرة التي ينقلها لنا القرآن الكريم يجدر بنا أن نتخذ منها لأنفسنا عبرة وعظة، فنراجع أنفسنا بصدق ونحاسبها، وإذا وجدنا في سجلّ أعمالنا ذنوبًا فلا نصرّ عليها، فالإصرار هو من علامات الشقاء كما في الحديث النبوي الشريف: «من علامات الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وشدة الحرص في طلب الرزق، والإصرار على الذنب»[1].

(١) نفسه ٥: ١٣٥.

أجل، ليعترف أحدنا بذنوبه ويقرّ بها بينه وبين ربه الرحيم، فيكون هذا هادمًا لذنوبه ومنجيًا له منها، وفق ما أفادته نصوص عدة، منها:

- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «حسن الاعتراف يهدم الاقتراف»[١].

- الإمام محمد الباقر عليه السلام: «والله ما ينجو من الذنب إلّا من أقرّ به»[٢].

- الإمام الباقر عليه السلام أيضًا: «ما أراد الله تعالى من الناس إلا خصلتين: أن يقروا له بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفرها لهم»[٣].

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ص ١٤٢.
(٢) الكافي ٢: ٤٢٦.
(٣) نفسه.

٦ - اتّباع الهوى الفكري

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

الخطاب في الآية الشريفة موجّه إلى خاتم الرسل محمد ﷺ، وهي واقعة ضمن سياق يحمل بُعدًا دلاليًا خاصًا؛ ذلك أنّ «سياق الآيات يشهد أنّ المشركين من قوم النبي ﷺ راجعوا بعض أهل الكتاب واستفتوهم في أمره ﷺ، وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه وهو مصدّق للتوراة فأجابوا بتصديقه والإيمان بما يتضمنه القرآن من المعارف الحقة، وأنهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يُبعث

(١) سورة القصص، الآية: ٥٠.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾[1]. فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول وقالوا: إنّ القرآن سحر والتوراة سحر مثله ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾[2] فأعرض الكتابيون عنهم وقالوا: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين»[3].

ترشد الآية رسول الله ﷺ إلى أنّ عدم استجابة هؤلاء المشركين لدعوته إنما هو ناجم عن اتّباعهم أهواءهم، فليس من علّة لعدم الاستجابة سوى هذه وحدها، من دون وجود أي قصور في الدعوة ذاتها أو تقصير في جهد النبي ﷺ في تبليغها وإيصالها إليهم: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

وأتبعت الآية ذلك باستفهام إنكاري: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، لا أحد على الإطلاق هو أشدّ غرقًا في الضلالة من هؤلاء الناس الذين اختاروا بملء إراداتهم أن يتّبعوا أهواءهم ويتجنبوا الأخذ بالهداية الإلهية

(١) سورة القصص، الآية: ٥٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٨.
(٣) الميزان في تفسير القرآن ١٦: ٤٧- ٤٨.

المتاحة بين أيديهم. لقد اختاروا أن يظلموا أنفسهم، وليس من شأن الله بعدئذ أن يجبرهم على سلوك طريق الهدى على الرغم من إراداتهم، بل شأنه معهم أن يتركهم وشأنهم ليلاحقوا مصيرهم الذي انتخبوه لأنفسهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

وثمة في الآية المباركة دلالات مهمة:

الدلالة الأولى:

يرتبط اتّباع الهوى بالجانب الفكري عند الإنسان ارتباطًا وثيقًا مباشرًا؛ ذلك أنّ اتّباع الهوى يجعل على العقل حجابًا يصعب اختراقه، وعندئذ لن يقوم العقل بوظيفته في هداية صاحبه كما ينبغي، بل يصبح صاحبه منجرًّا من حيث يشعر أو لا يشعر وراء رغباته وشهواته متجاهلًا ما يدعوه عقله إليه؛ لذا ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الهوى عدو العقل»[١]، وقال عليه السلام أيضًا: «لا عقل مع هوى»[٢].

وإذ قد تبيّن هذا، ظهر جليًّا أنّ اعتقاد كثير من الناس

(١) الأمثل ١١: ١٩٤.
(٢) نفسه.

ببعض ما يعتقدون به قد لا يكون قائمًا على أساس متبنّيات فكرية وأصول معرفية صحيحة، بل قد ينهض على أسس نفسية مرتبطة بانشدادهم الوثيق إلى أهوائهم، وهذا معناه أنّ بذل الجهود الفكرية معهم لإقناعهم بخطئهم لن يكون ذا جدوى؛ لأنّ مشكلتهم في الأساس ليست فكرية عقدية، بل هي روحية وخلقية، فلا مناص لمن يريد إصلاحهم أن يصب اهتمامه في هذا المصب؛ كيما تؤتي جهوده أُكُلها، ولا تضيع أوقاته وطاقاته سدى.

الدلالة الثانية:

من أبرز العلامات الدالة بوضوح على كون إنسانٍ ما خاضعًا لسطوة هواه في ناحيته الفكرية عدمُ أخذه بالمسلّمات والقضايا الواضحة التي قد تكون أقرب إلى البدهيات، فمثل هذا الموقف لا يكون في العادة إلا ناجمًا عن اتّباع الهوى وطغيانه على سلطة العقل. تقول الآية الشريفة: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ أي لم يسلّموا بما تدعوهم يا رسول الله إليه، مع كونه متطابقًا مع عقولهم ونداء فطرتهم، فهو واضح جليّ لو فكّروا فيه بعقول صحيحة سالمة من الضغوط النفسية، لكنهم مع هذا لا يستجيبون، وليس ذلك إلا بفعل الهوى الذي

لم يتمكنوا من التجرد منه والتخلص من قبضته الوثيقة: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

إنّ التخلص من إسار الهوى الفكري قد يبدو شأنًا هيّنًا ميسورًا في بادي النظر، لكنه في واقعه، وفي مقام التطبيق، من أشد الأمور وأعسرها؛ لذا ليس مستغربًا أن يصف أمير المؤمنين علي عليه السلام من ينجح في ذلك بأنه أشجع الناس: «أشجع الناس من غلب هواه»[1].

ونقرأ في التاريخ قصصًا غير قليلة العدد عن ناس منعتهم أهواؤهم النفسية ومشتهياتهم الذاتية من الاستجابة للحق، على الرغم من وضوحه عندهم. من هؤلاء، مثلًا، أعشى قيس، الشاعر المعروف، فقد أدرك الإسلام ورآه دين الحق، وخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد الإسلام على يديه الشريفتين، وروي أنه قال في مدحه شعرًا، فلمّا كان في بعض مراحل الطريق اعترضه بعض المشركين من قريش وأخبره بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يحرّم الخمر، هذه التي كان الأعشى مغرمًا بها، فما كان منه إلا أن قال: «أما هذه فوالله إنّ في نفسي منها العلالات، ولكني منصرف فأتروّى منها عامي هذا، ثم آته

(١) الأمثل ١١: ١٩٥.

فأسلم». وهكذا ترك التمسك بالحق الذي اتضح له، مؤمّلًا الرجوع إلى النبي ﷺ بعد ذاك العام، لكنّ الأجل لم يمهله، فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى النبي ﷺ (١).

الدلالة الثالثة:

أشد أنواع الضلال وأكثرها خطورة هو الضلال المنهجي. هذه حقيقة مهمة، لكن الناس كثيرًا ما يغفلون عنها، فالضلال درجات وأنواع، وهي فيما بينها تتفاوت في الشدة والضعف، والخطورة والأثر، لكنّ أصعبها على الإطلاق هو الضلال الذي يتعلق بالمنهج الفكري في الحياة، هكذا يصرّح القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فليس من البشر قاطبةً من هو أضلّ من الإنسان الذي يتخذ من اتّباع هواه منهجًا يبتعد به عن الهدى الإلهي القويم.

إنّ هذا الإنسان قد حكم على نفسه، بسوء اختياره المنهجي، بالشقاء، وأي شقاء؟ فعن الإمام علي بن أبي

(١) وردت هذه القصة في مصادر كثيرة، منها مثلا: السيرة النبوية لابن هشام، والبداية والنهاية لابن كثير ج٣، وتفسير القرطبي عند تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

طالب عليه السلام أنه قال: «الشقي من انخدع لهواه وغروره»[١].

ومن هنا يظهر لنا مدى أهمية قضية الدقة في اختيار المنهج الذي يسير المرء في ضوئه، فهي قضية قد تجرّه، في حال الخطأ، إلى الشقاء الأبدي، وقد تقوده، في المقابل، إلى النعيم الخالد. وهذه الحقيقة كفيلة بدعوتنا إلى مزيد من الدقة والاحتياط والحذر في هذا المجال، لا سيما في زماننا هذا الذي تتكثر فيه الأقوال والكتابات الداعية إلى قراءات جديدة للدين في ضوء معطيات المناهج النقدية واللسانية والأنثربولوجية الحديثة، وهي دعوات تحمل في داخلها، بالتأكيد، رغبة جلية في التجديد والتطوير، لكنها تحتاج منا إلى تدقيق تخصصي واعٍ في مدى ملاءمة الناحية المنهجية التي تنادي بها لطبيعة الفكر الديني وخصوصياته التي يختلف بها عن الفكر البشري العادي، وهذه قضية موكلة لمظانّها ومواضعها المناسبة لها.

وثمة، في المقابل، حاجة ماسة أيضًا للنظر في مناهج القدماء في تعاملهم مع النصوص الشرعية ومدى نجاعتها ودقتها، بغيةَ الوصول لما هو في طريق الهدى المنهجي الذي

(١) الأمثل ١١: ١٩٤.

لا بد أن نُعنى به؛ كيما نتجنب الضلال المنهجي الذي حذرنا القرآن منه.

الدلالة الأخيرة:

لا تكاد تخفى على عاقل أهمية اجتناب إلحاق الظلم الفكري بالنفس، ومع هذا فكثيرون لا يجتنبون!

إنّ الظلم - بكل صوره وأشكاله - قبيح في نظر العقل، ومحرم في كل الشرائع الإلهية السماوية، لا سيما الإسلام الذي شددت نصوصه الشرعية على خطورته ووخامة عاقبته، حتى قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «الظلم أمّ الرذائل»[1]، وقال كذلك: «إياك والظلم فإنه أكبر المعاصي»[2].

وهذا الظلم لا يراه الإسلام منحصرًا في ظلم الإنسان غيرَه، فقد يتجلى في صورة أخطر وأوخم، هي صورة ظلمه نفسَه. وإذا تقبّل المرء أن يوجه ظلمه إلى أحب النفوس إليه، وهي نفسه، فلا محالة سيكون أكثر تقبلًا لتوجيه الظلم إلى

(١) ميزان الحكمة ٥: ٥٩٥.
(٢) نفسه ٥: ٥٩٧.

غيره من البشر والكائنات الأخرى، وهي الحقيقة التي تحدث عنها أمير المؤمنين علي عليه السلام إذ قال: «من ظلم نفسه كان لغيره أظلم»[١].

وأخطر أنواع ظلم الذات هو ظلمها فكريًا، بحرمانها عمدًا من الفكر الذي فيه هدايتها، والسير بها في ظلمات الضلالة، بالتمسك بالأفكار التي تستدعيها الأهواء النفسانية والميول الشيطانية، بعيدًا عن الهدى الإلهي القويم الذي لا يأخذ الناسَ بالإكراه والإجبار، فكل امرئ وما يختاره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(١) نفسه ٥: ٦١٧.

٧ - المنع من الإيمان

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾(١).

تبتدئ الآية الكريمة بـ «ما» التي تفيد النفي، بناءً على ما ذهب إليه معظم المفسرين، والقول بأنها استفهامية قول ضعيف لا يساعد عليه ظاهر الآية ولا سياقها. و«الناس» المذكورون قيل إنّ المقصودين هم مشركو قريش في زمن النبي الأكرم ﷺ، و«الهدى» قيل هو النبي ﷺ وقيل هو القرآن، واللفظ مطلق يتناول كل ما يهدي من قِبَل الله تعالى.

وجاء الفعل «يستغفروا» معطوفًا على الفعل السابق

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٥.

«يؤمنوا»، وقد ذكر العلماء في تعليل ذكر الاستغفار بعد الإيمان أقوالًا، أهمها:

أ - للدلالة على أنّ الإيمان المقصود هنا هو الإيمان الحقيقي، وليس النفاق، وعلامة كون الإيمان حقيقيًا هي أن يتحقق استغفار الرب سبحانه. لكن هذا القول ضعيف؛ لأنه ليس من المعهود في الاستعمالات القرآنية أن يكون لفظ «الإيمان» متناولًا حالات النفاق.

ب - لإفادة أنّ الإيمان لا يجبّ ما قبله إلا إذا وُجد الاستغفار. وهذا القول ضعيف أيضًا كسابقه؛ لأنه قائم على دعوى ليس عليها دليل.

ج - لبيان أنّ انضمام الاستغفار إلى الإيمان هو الذي يحقق الكمال الأعلى المطلوب للإنسان.

ومهما يكن، فقد أتت الآية الشريفة - بعد أن نفت وجود مانع يمنع الناس من الإيمان والاستغفار - لتستثني مانعًا واحدًا هو مجيء العذاب، ذاكرةً لهذا العذاب صورتين اثنتين:

الأولى: «سُنّة الأوّلين»، أي عذاب الاستئصال، وفي حالة مجيئه لا يتمكنون من الإيمان أصلًا.

والأخرى: العذاب الآتي «قُبُلًا»، أي يأتيهم مقابلًا لهم

فيرونه بأعينهم، أو هو جمع «قبيل» وهو النوع، أي يأتيهم العذاب أنواعًا، وعندئذ يمكنهم الإيمان لكنه لن ينفعهم بعد أن أصبح العذاب قريبًا.

لكن، ما معنى استثناء الآية مجيء العذاب، بصورتيه، من نفي المانع من الإيمان والاستغفار؟ وبتعبير آخر: ما المعنى الإجمالي المستفاد من الآية المباركة؟

ذكر المفسرون لذلك وجوهًا عدة، أهمها:

١- المقصود النهائي الذي تريد الآية بيانه هو أنه لا يمنعهم من الإيمان والاستغفار مانع أصلًا، فهي بعد أن نفت وجود المانع الذي يمكن أن يمنعهم جاءت بحرف الاستثناء «إلا»، جاعلةً قارئها يتوقع أن تذكر بعده مانعًا مستثنًى، لكنها فاجأت القارئ بذكر ما ليس بمانع؛ ذلك أنّ انتظار العذاب ليس مانعًا يمنعهم من الإيمان والاستغفار، بل هو دافع يدفعهم في الحقيقة نحو الإيمان والاستغفار.

أسلوب الآية، بناءً على هذا الوجه، يكون مماثلًا لما يُعرف في البلاغة العربية بتأكيد الذم بما يشبه المدح، كأنْ يقول القائل: «فلان بخيل إلا أنّه جبان»، فهو حين قال: «فلان بخيل» أتى بعبارة ذم، فلمّا جاء بأداة الاستثناء توقّع

المستمع أن يذكر بعدها صفة مدح، لكنه خالف هذا التوقع وأتى بصفة ذم أيضًا، فأكّد الذم بما يشبه المدح، وكأنه لم يجد في فلان المتحدث عنه أية صفة حسنة تستحق أن تُذكر؛ لذا ذكر له صفة ذم أخرى! والآية الشريفة كنا نتوقع بعد إتيانها بحرف الاستثناء أن تذكر مانعًا حقيقيًا يمنعهم من الإيمان والاستغفار، لكنها ذكرت ما لا يصلح أن يكون مانعًا أصلًا، فكأنها تفيد أنه لا يوجد هناك مانع حتى يُستثنى.

٢ - المدلول الأخير للآية هو أنّ الذي يمنعهم من الإيمان هو انحطاط نفوسهم وضعف قابلياتهم الذاتية النفسية، فالتعبير القرآني بأنهم لا يؤمنون لأنهم ينتظرون العذاب معناه أنهم لا يؤمنون لأنهم يرون أنفسهم مستحقين للعذاب، فكأنهم يقرّون ويعترفون بأنهم أوصلوا أنفسهم إلى درجة سافلة منحطّة من الانحراف عن الحق بنحو لم يعودوا معه يمتلكون قابلية حقيقية للإيمان والاستغفار.

٣ - معنى الآية هو على الدلالة الحالية، فلسان حال هؤلاء - إذ لا يؤمنون ويستغفرون - يقول إنهم ينتظرون العذاب الإلهي.

المعنى، بناءً على ما تقدم، يشبه ما إذا كنا نتوقع هبوب

رياح قوية، ومع هذا لم نفعل أي شيء لمواجهتها، فإنه يصح أن يقال في هذه الحالة: إننا ننتظر الرياح.

ونغنم من الآية الشريفة، بعد ما تقدم، مجموعة من الغنائم المهمة:

الغنيمة الأولى:

علينا ألّا نُخدع بما قد نتوهمه - أو يوهمنا الآخرون به - على أنه مانع يمنعنا من سلوك طريق الإيمان والالتزام الديني، من قبيل العامل الوراثي أو التربوي أو البيئي، فهذه كلها لا تزيد على أن تكون مقتضيات أو معدّات لتوجيه سلوكنا، وليست عللًا تامة لا نملك إلا أن نخضع لها دونما تأثير لإراداتنا أو موضع لاختيارنا الحرّ.

إنّ كثيرًا من الناس قد يتخيلون هذه العوامل المذكورة، وغيرها أيضًا، عوامل تمنعهم منعًا أكيدًا من السير في طريق طاعة الله سبحانه وعبادته، فيسوّغون بذلك لأنفسهم تقصيرهم في الالتزام بما تقتضيه العبودية الحقة لخالقهم (جلّ شأنه)، وربما يزدادون نتيجة هذا التسويغ ابتعادًا عن الشرع وتوغلًا في المعاصي والذنوب.

ولو أنهم عادوا إلى النصوص الشرعية لوجدوها تدلّ بصراحة على كونهم مسؤولين عمّا يختارونه طريقًا لأنفسهم، وليس الإيمان الحقيقي إلا بتسليمهم الإرادي الطوعي لما يريده الله سبحانه منهم، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أصل الإيمان حسن التسليم لأمر الله»[1].

الغنيمة الثانية:

ينبغي للإنسان العاقل الحصيف أن يبحث عن الهداية والخير والسعادة على مقربة منه، وبالاعتماد على الكفاءات والطاقات والإمكانات المتاحة بين يديه، فالناجح ليس هو من تتوافر عنده إمكانات أكثر من التي تتوافر عند غيره بالضرورة، بل هو ذاك الذي يعرف كيفية استثمار ما هو متاح عنده على الطريقة الأحسن والأجدى، فقد يكون النجاح قريبًا في المتناول، ولا يحتاج من المرء إلا أن يُحسن الإفادة منه. الآية الكريمة تشي بهذا المعنى بتعبيرها بـ «المجيء» في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، فالهدى هنا قريب وميسور، بل هو الذي يجيء الناسَ بنفسه، وليس عليهم سوى أن يغنموه،

(١) ميزان الحكمة ١: ٣٠١.

وإذ ذاك يصلون إلى مرامهم بإرشاد إلهي، مثلما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من اهتدى بهدى الله أرشده»[١].

بَيْدَ أنك قد تجد من حولك أناسًا يفكرون بغير هذه الطريقة، فيبحثون عن سعادتهم ونجاحهم بالابتعاد عن واقعهم وإمكاناتهم المتاحة فعليًا بين أيديهم، فترى أحدهم يفكر في تغيير وظيفته ومحل عمله إذا واجهته بعض المشكلات والصعوبات، وتلقى الثاني يود أن يطلق زوجته حينما يجد الأزمات بينهما قد تفاقمت، ولعلك أيضًا لا تعدم من يخطط للهجرة بعيدًا عن الوطن في حالة ما إذا رأى حياته فيه مليئة بالتحديات الكبيرة التي لا قِبَل له بتحمّلها ومواجهتها. ومن الطبيعي أنّ هذه خيارات منطقية وعقلائية متاحة، لكنها لا ينبغي لها أن تكون أُولى خياراتنا وأرجحها عندنا، فالأصل أن نستفيد مما هو قريب موجود عندنا.

الغنيمة الثالثة:

نستفيد من الآية المباركة أنّ صلاح حال الحاضر لا بد أن يترافق مع التخلص من تبعات الماضي وآثامه، فالآية تذكر

(١) نفسه ١٠: ٣٢٨.

فعلين اثنين: ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ و﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ﴾، و«الإيمان» إشارة إلى ضرورة الحرص على أن يكون حاضرنا قائمًا على الأساس الإيماني القويم الذي يجعلنا نسلك سبيل طاعة ربنا ونتجنب كل ما يبعدنا عنه ويقرّبنا من الشيطان، في حين أنّ «الاستغفار» هو إشارة إلى ضرورة الحرص على إصلاح ما كنّا أفسدناه في الماضي، وتجاوز آثاره السلبية ونتائجه القبيحة، فمن دون هذا لن يتأتى لنا أن نبني حاضرنا على الوجه السليم المطلوب.

ويتبدى لنا مدى عناية الإسلام بهذه الناحية المتعلقة بالماضي من تأكيد نصوصه الشرعية أهميةَ الاستغفار وضرورة الإكثار منه، فمن ذلك ما جاء في الحديث النبوي الشريف: «أكثروا من الاستغفار، فإنّ الله عز وجل لم يعلّمكم الاستغفار إلا وهو يريد أن يغفر لكم»[1].

الغنيمة الأخيرة:

يحرص القرآن الكريم في آيات كثيرة منه - وهذه الآية واحدة منها - على تذكير الناس دومًا بالعذاب الإلهي؛

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٤٧.

ليكونوا دومًا على حذر من العقوبة التي تنتظرهم إنْ ظلوا يقترفون المعاصي ويرتكبون المنكرات، وهي العقوبة التي وصفها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «ليس شيء بشرّ من الشرّ إلا عقابه، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه»(١).

وإنه لأمر عُجاب فعلًا: أنْ يعرف الإنسان مدى ضعفه وعجزه عن تحمّل العقوبة الإلهية، ومع هذا لا يتورع عن الذنوب والمعاصي التي ستكون سببًا لعقابه، إنْ لم يكن في هذه الحياة الدنيا ففي الحياة الأخرى، حيث الشقاء الحقيقي. يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في وصف هذه الحالة في دعاء معروف من أدعيته:

«يا رب وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها، وما يجري فيها من المكاره على أهلها، على أنّ ذلك بلاء ومكروه قليلٌ مكثه، يسيرٌ بقاؤه، قصيرٌ مدته، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وجليل (حلول) وقوع المكاره فيها؟ وهو بلاء تطول مدته ويدوم مقامه ولا يُخفف عن أهله؛ لأنه

(١) نفسه ٦: ٣٨٩.

لا يكون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك، وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض يا سيدي، فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين؟»[١].

(١) فقرة من الدعاء المعروف بدعاء كميل بن زياد.

٨ - أظلم الناس

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾[1].

تستهل الآية الشريفة باستفهام إنكاري، يراد منه نفي وجود إنسان هو أكثر استحقاقًا لوصف الظلم من الإنسان المتصف بالصفات المذكورة، فهذا أكثر الناس ظلمًا على الإطلاق في المنظور القرآني. والصفات المقصودة هي أنه بعد أن ذُكّر بآيات ربه، سواء أكانت هذه الآيات هي الآيات القرآنية أم الأدلة والبراهين العقلية الدالة على وجود الله وتوحيده أم أية أدلة أخرى تدل الإنسان على خالقه (جلّ

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٧.

وعلا) فإنّ هذا الإنسان لم يقابلها إلا بالإعراض عنها، ناسيًا ما كانت قد اقترفته يداه من ذنوب سيلقى جزاءها في يوم قادم لا محالة. والتعبير بالتذكير فيه إشارة إلى أنّ المعرفة بالله تعالى مودعة أصلًا في الفطرة الإنسانية، وقد جاء الرسل والأنبياء مذكّرين بما فيها.

وينتهي الأمر بهذا الإنسان الموصوف بما تقدم، وبأمثاله، إلى أن يجازيهم ربهم بسوء أعمالهم وإعراضهم عن الهدى بأنْ يجعل على قلوبهم «أكنّة»، والكلمة جمع كِنان (على وزن كتاب)، وهو الحجاب الساتر، وهذه الأكنّة تكون مانعتهم من أن يفقهوا الذكر الذي ذُكّروا به، وكذلك يجعل في آذانهم «وقرًا» وهو الثقل في السمع، فلا يكونون قادرين على الاستماع إلى دعوة الحق وكلمة الهدى؛ لذا لن تبقى عندهم القابلية على الإذعان للهدى والرجوع إليه أبدًا، فقد اختاروا الابتعاد عن سبيله، فلن تكون عندهم إمكانية الاهتداء أبدًا.

هذا، وفي الآية المباركة مجموعة من الثمرات التي ينبغي لها أن تُجتنى:

الثمرة الأولى:

أشدّ أنواع الظلم ظلم الإنسان نفسَه بإزاء ربه، هذه حقيقة دلّت عليها الآية باستعمالها الاستفهام الإنكاري في بدئها، فإذا كان الظلم مرفوضًا بكل صوره وصنوفه ومراتبه، فلا ريب أنّ أشده سيكون أشدّ رفضًا وإنكارًا في المنظور الإلهي. ولا يكون هذا الظلم إلا بأنْ يُبعد الإنسان نفسه عن الطريق الإلهي المؤدي إلى نعيمها وراحتها وهنائها إلى طرق المعاصي وإطاعة الشيطان الرجيم، فبهذا يحرم الإنسان نفسه من أعلى المقامات الخالدة، ويسفّ بها إلى أعمق دركات السقوط والغرق، وأي ظلم للّنفس أكبر من هذا؟ وقد قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ظلم نفسه من عصى الله وأطاع الشيطان»[١]، وقال أيضًا: «من أهمل العمل بطاعة الله ظلم نفسه»[٢].

يُنقل أنّ رجلًا كتب إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «يا أبا ذر، أطرفني بشيء من العلم، فكتب إليه أنّ العلم كثير، ولكن إن قدرت أن لا تسيء إلى من تحبه فافعل، فقال له الرجل:

(١) ميزان الحكمة ٥: ٦١٨.
(٢) نفسه.

وهل رأيت أحدًا يسيء إلى من يحبه؟ فقال له: نعم، نفسك أحب الأنفس إليك، فإذا أنت عصيت الله فقد أسأت إليها»[١].

الثمرة الثانية:

يتحمل الإنسان مسؤولية كبيرة فيما يرتبط بقضية اهتدائه إلى الحق. صحيح أنّ الهداية هي أساسًا من الله سبحانه، لكن هذا لا يعني أنها تأتي من تأتيه جزافًا، وتغيب عن غيره اعتباطًا. إنّ الإنسان مسؤول عن أن يستمع جيدًا للحق حين يأتيه وأن يفتح قلبه للموعظة ويتّبعها، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «اتّبع من يُبكيك وهو لك ناصح، ولا تتّبع من يُضحكك وهو لك غاشّ»[٢].

هؤلاء الذين تحدثت عنهم الآية المباركة ما صاروا أظلم الناس إلا لكونهم أهملوا أنفسهم من هذه الناحية وتركوا القيام بمسؤولياتهم، فكانوا كلما ذُكّروا بآيات ربهم لم يعيروها اهتمامًا ولم يُصغوا إليها جيدًا، بل قابلوها بالإعراض، عن

(١) نفسه.
(٢) نفسه ١٠: ٦١.

قصد وتعمّد، فكانت النتيجة أن استحقوا وصف القرآن لهم بأظلم الناس، وكفى بهذا خسرانًا مبينًا.

ولعلّنا لا نعدم في أوساطنا الاجتماعية المختلفة أناسًا لا يخصصون أي قدر - ولو قلّ - من وقتهم وجهدهم للاطّلاع على ما يفيدهم ويدعوهم إلى الهدى (إن لم يكونوا مهتدين) أو يزيد أقدامهم رسوخًا في طريقه (إن كانوا من المهتدين فعلًا)، وكأنهم بهذا يبدون عدم اهتمامهم بأن يكونوا في طريق الهدى، أو كأنهم ينتظرون أن ينزل عليهم الهدى من السماء دون أن يحرّكوا ساكنًا أو يؤدوا أية مسؤولية من جانبهم!

الثمرة الثالثة:

ترشد الآية الكريمة بقولها: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ إلى أنّ الإنسان عليه ألّا ينسى ما كان قد اقترفه في ماضيه من أخطاء وما اجترحه من سيئات وذنوب؛ وذلك كي لا تتكرر هذه منه مرة أخرى. فتذكّره لذنوبه دومًا سيجعله لا يسمح لنفسه بالوقوع فيها من جديد، إذ يكفيه ما ينتظره من عقاب على الذنوب السابقة، فلا معنى لأنْ يفتح باب حياته أمام ذنوب جديدة.

ثم إنّ تذكّر الذنوب السابقة يجعل العاقلَ منّا يعرف جيدًا

نقاط ضعفه، والعوامل التي أدّت إلى سقوطه، فيسعى للاتّعاظ من تلك التجارب السابقة التي مرّ بها، ويعتبر في قابل أيامه، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «العاقل من وعظته التجارب»[١]، وقال عليه السلام أيضًا: «التجربة تثمر الاعتبار»[٢].

ومما تقدم يتبيّن الفارق بين نوعين من تذكّر أخطاء الماضي: فثمة تذكّر سلبيّ قد يجعل صاحبه فاقد الأمل في الصلاح، ومهيّض الجناح على الدوام، ولربما يتعمق الوضع سوءًا فيقارب درجة الإياس من رحمة ربه، وهذا مرفوض بلا ريب. وثمة، في المقابل، تذكّر إيجابي، يتخذ من استحضار الماضي وسيلة إلى التطور والإبداع في الحاضر والمستقبل، وهذا هو الذي ينبغي أن يكون.

الثمرة الأخيرة:

ما أحوجنا إلى أن نحذر الوصول في انحدارنا وابتعادنا عن طاعة ربنا إلى الحالة التي يتعذر بعدها الاهتداء! وهي

(١) ميزان الحكمة ٢: ٢٦.
(٢) نفسه ٢: ٢٥.

الحالة التي تحدثت عنها الآية المباركة في نهايتها: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

إنّ من الثابت في الروايات الشريفة المتحدثة عن الذنوب وآثارها في الناس أنّ كل ذنب يقترفه الإنسان يترك أثرًا سيئًا في قلبه، وكلما ازدادت الذنوب تكثرت تلك الآثار السيئة، حتى ينتكس القلب فيصبح أسفله أعلاه، ولربما تسوء الحالة أكثر فيصبح القلب ميتًا، وأنّى لهذا القلب الميت بعدئذ أن يهتدي؟

العاقل، إذًا، هو من يبذل قصارى وُسْعه لتجنّب الوصول إلى هذه النتيجة الوخيمة الخطيرة، وليس ذاك إلا بمزيد من الجهاد مع النفس، بغيةَ التحكم في أهوائها وعدم الانقياد لما تدعو إليه من معصية الله ومخالفة شرعه، ومن دون ذلك لن يكون الهدى سوى أمنيّة غير متاحة التحقق، وهذا ما دلّنا عليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «كيف يستطيع الهدى من يغلبه الهوى؟»[1].

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٣٠.

٩ - التذكّر عند طائف الشيطان

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

اهتم القرآن الكريم اهتمامًا واضحًا بقضية علاقة الشيطان بالإنسان في آيات كثيرة منه، وبيّن أنّ الشيطان قد أخذ على نفسه عهدًا بأن يظل يسعى لإغواء الإنسان عن صراط ربه المستقيم، وهو لا يني يخطط ويدبّر وسائل وأساليب كثيرة لتحقيق ما يرمي إليه ويحاول الوصول إليه، والمهم في المقام أن يعرف الإنسان مسؤوليته، فلا يكون منساقًا وراء رغبة عدوه الشيطان محققًا له مراده.

هذه الآية الشريفة توضح لنا الموقف المطلوب من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

المتقين في مواجهة الشيطان، وهو موقف مهم ومطلوب بشدة؛ لذا ابتدأت الآية بحرف التوكيد «إنّ»، ثم جاءت بالاسم الموصول مع صلته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ ولم تقل: «إنّ المتقين»؛ لتشير إلى أنّ الموقف الذي ستذكره إنما ينبجس أساسًا من وجود التقوى بنحوٍ فاعل عمليّ يحقق أثره في سلوك صاحبه وتصرفاته الفعلية في الحياة.

هؤلاء الذين اتقوا معرّضون للوساوس الشيطانية، حالهم في هذا حال غيرهم من الناس، لكنّ الفارق كامن في الموقف حيال ذلك، فبينما نجد أناسًا قد ينصاعون للشيطان ويلبّون كل ما يريده منهم، نجد الذين اتقوا يقفون موقفًا مختلفًا تُمليه عليهم تقواهم التي تخامر عقولهم وقلوبهم وتترك لها آثارها في كل مواقف الحياة وجوانبها المتنوعة.

إنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾، و«الطائف» قيل يُراد به الشيطان نفسه، فتكون «من» عندئذ بيانية، أي طائف هو الشيطان، وقيل أيضًا إنّ الطائف وسوسة ناشئة من الشيطان، فتكون «من» بناءً على ذلك نشوئية. والطواف المقصود إنما هو الطواف حول قلب الإنسان وفكره وروحه بغيةَ البحث عن منفذ للدخول إلى داخله.

الموقف الذي يواجه به الذين اتقوا هذا الطائف الشيطاني هو ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي تذكّروا نعم الله عليهم، وتذكّروا أيضًا عقابه للعاصين المبتعدين عن طريقه. وتكون نتيجة هذا التذكّر وصولهم إلى درجة البصيرة: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

وبعد، ففي الآية عطاءات عظيمة، منها:

العطاء الأول:

على كل مؤمن ألّا يغفل عن احتمال أن يمسّه طائف من الشيطان، فهذه حقيقة قرآنية ثابتة، ولا يصح لنا أن نهملها أو نتغافل عنها. والملاحظ هنا أنّ الآية الكريمة استعملت أداة الشرط «إذا» في قولها: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ولم تستعمل «إنْ»، وقد ذكر علماء البلاغة أنّ الفارق الأساس بين الأداتين كامن في أنّ «إذا» تُشعر المتلقي في غالب الأحيان بأنّ الشرط الذي بعدها سيتحقق فعلًا، بخلاف «إنْ» التي لا تحمل مثل هذه الدلالة. فالآية، على هذا، تفيد أنّ مسّ الطائف من الشيطان سيتحقق في يوم ما، فعلى المؤمن أن يكون مستعدًا كامل الاستعداد لذلك اليوم، بالحذر من الشيطان ووساوسه، مثلما أوصى الإمام علي بن أبي

طالب عليه السلام بقوله: «احذروا عدوًا نفذ في الصدور خفيًّا، ونفث في الآذان نجيًّا»[١].

وإذا كان ذاك كذلك، فمخطئ، إذًا، من يعرّض نفسه ومجتمعه وأولاده للانحرافات المختلفة، بحجة أنه واثق من عمق الدين ورسوخ الأخلاق عنده وعند غيره، ومن ثَمّ فإنّ التعرض لبعض الأجواء الفاسدة، أو شيء من صداقات السوء، أو السفر للبلدان أو المناطق الموبوءة بالفساد الخلقي والانحراف عن الشرع الإلهي، أو مطالعة بعض الكتب أو المواقع الإلكترونية ذات الأفكار الإلحادية أو المنحرفة عن جادة العقيدة الصحيحة، كل ذلك وأمثاله ليس يمكن أن يشكل خطرًا على الإيمان والأخلاق عنده وعند من هو مسؤول عنهم أمام ربه.

إنّ هذه الثقة الزائدة حين لا تظفر لها بمحل صحيح، تكون مدعاة لوقوع الإنسان في حبائل أعدائه المتربصين به، وأي عدو أخطر له من الشيطان الرجيم الذي آلى أن يقعد للمؤمنين على الصراط المستقيم محاولًا إغواءهم أجمعين، أفليس مثله حريًا بأن يحذره المؤمنون ويتقوا شر عداوته؟

(١) ميزان الحكمة ٥: ٨٠.

العطاء الثاني:

تفيد الآية المباركة أنّ الوسوسة الشيطانية قد تتسبب في تغييب البصيرة عن الإنسان المؤمن، ولا تعود إليه هذه البصيرة إلا إذا «تذكّر»، مثلما تقدم بيانه. وغياب البصيرة معناه حضور الغفلة التي وصفها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «الغفلة أضرّ الأعداء»(١).

إنّ الغفلة لها أبعاد خطيرة كثيرة، أخطرها أنها تجعل القلب الإنساني بعيدًا عن الله تعالى، فلا يكاد يستحضر أنّ له ربًا له عليه حق الطاعة، فتراه يتخبط في سيره في الحياة يمينًا وشمالًا، من دون هدف يوجّه خطواته ويرشده إلى الغاية التي عليه أن يسير نحوها، ومثل هذا السير لن يقود صاحبه إلّا إلى مزيد من الضياع والتيه، بعيدًا عن الصراط الإلهي المستقيم، فيكون مستحقًا للويل الذي نبّه عليه الإمام علي عليه السلام أيضًا بقوله: «ويل لمن غلبت عليه الغفلة، فنسي الرحلة ولم يستعدّ»(٢).

ومن الأبعاد الخطيرة الأخرى للغفلة أنها حين تطغى

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٥٨.
(٢) نفسه ٧: ٢٥٩.

وتغطي على البصيرة - إن لم تطفئ نورَها تمامًا - تجعل الإنسانَ يرى الأمور على غير ما هي عليه في الواقع، فيرى الربا فائدة محببة إلى نفسه، ويرى في الغناء المحرّم وسيلة للترفيه البريء والراحة النفسية، وترى المرأة السفور ونبذ الحجاب الشرعي تحررًا وإنسانية!

إنّ هذه الأمثلة، وغيرها كثير، لتحمل دلالات واضحة لا لبس فيها على أنّ الغفلة توقع المرءَ في الاغترار بالمناظر الخادعة للأشياء، لا سيما إذا كانت هناك وساوس شيطانية من شياطين الجن والإنس أيضًا تزيّن هذه المناظر بعناوين خلابة ووسائل إعلامية خداعة، فيغترّ بها هؤلاء الغافلون. وقد أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حالة الاغترار هذه بقوله: «الغفلة تُكسب الاغترار، وتُدني من البوار»[١]، ووصفها في كلمة له أخرى بالسكر إذ قال: «سكر الغفلة والغرور أبعد إفاقةً من سكر الخمور»[٢].

العطاء الأخير:

بيّنت الآية الكريمة أنّ علاج الوسوسة الشيطانية والتغلب

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٥٨.
(٢) نفسه ٧: ٢٦١.

عليها ممكن لكل مؤمن، وليس بذلك الشيء الخارق الذي لا يقدر عليه ولا يُلقّاه إلا الأوحديّ المميّز من البشر. ويتلخص هذا العلاج في أمرين ذكرتهما الآية:

فأما **الأمر الأول** فهو عبارة عن تقوية التقوى في النفس، وهو الأمر الذي أشارت إليه الآية حين افتتحت خطابها بـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾. نعم، فبالتقوى يسير المرء في طريق العبودية الحقة، وبها يصل إلى رضوان ربه ويفوز بجنانه التي أعدّها للمتقين، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكثر ما تلج به أمتي الجنة: تقوى الله، وحسن الخلق»[١].

وإنّ التقوى لتعني أن يتوقى المرء كل ما من شأنه أن يجرّه إلى سخط ربه وعذابه، وهذا يستلزم بالضرورة أن يكون في داخله خوف حقيقي من ربه، وهذا الخوف - متى كان صادقًا بالفعل- حريّ بأن يجعله في مأمن من الشيطان ووساوسه وتسويلاته، وقد نبّه الإمام محمد الباقر عليه السلام على هذه الحقيقة إذ قال: «تحرّز من إبليس بالخوف الصادق»[٢].

وأما **الأمر الآخر** فهو «التذكّر»: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾، وهذا

(١) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي، ١: ٧٦.
(٢) ميزان الحكمة ٥: ٩١.

التذكّر هو - في حقيقته - عملية إرادية مطلوبة من العبد المتقي على الدوام، لكنها تصبح مطلوبة بنحو آكد وأهم حينما يتعرض هذا العبد لمحاولات الشيطان لإبعاده عن الطريق الإلهي. هنا ينبغي له، بل يجب عليه عقلًا وشرعًا، أن يُخرس شيطانه باللجوء إلى التذكّر، فيتذكر نِعمَ الله عليه، تلكم النعم التي لا تنقطع عنه ليله ونهاره، من مستهل عمره إلى منتهاه، النعم التي لا يقدر هو حتى على إحصائها، فضلًا على أن يؤدي حق شكرها، فهل يكون جزاء المحسن بها عليه أن يُعصى ويُتمرد على شرعه؟ ويتذكر أيضًا العذاب الشديد المعدّ للعصاة والمذنبين، ذلك العذاب الذي تقشعرّ الجلود وتتجمد المفاصل حين يقرأ المرء تصويره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾[1].

هذا العذاب الأليم الذي لا يمكن لأحدنا أن يتصوّر مقدار ألمه، هل من العقل أن يعرّض الإنسان - هذا المخلوق الضعيف الفقير العاجز المسكين - نفسه له؟

(١) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.

التذكّر النافع المطلوب، إذًا، هو الذي يحول بين العبد والمعصية، ويصرفه عن طريق الضلال والانحراف. هكذا فسّرته الروايات الشريفة، فعن أبي بصير أنه قال: «سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، فقال عليه السلام: هو العبد يهمّ بالذنب ثم يتذكر فيمسك، فذلك قوله: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾»[1].

وإذ قد اتضح هذا، فينبغي أن يتضح أيضًا أنّ المجتمع المسلم مسؤول عن توفير كل الأجواء والوسائل الكفيلة بالتذكير بالله تعالى، ومسؤول أيضًا عن حثّ أبنائه وبناته على الإفادة منها قدر الوسع، كحضور المساجد، ومجالس ذكر النبي وآله (صلوات الله عليهم أجمعين)، وزيارة القبور، وصحبة الأخيار. فكل ذلك، وغيره، له سُهمة أكيدة في طرد الغفلة، وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «ضادّوا الغفلة باليقظة»[2].

(١) الميزان في تفسير القرآن ٨: ٣٨٥.
(٢) ميزان الحكمة ٧: ٢٦٠.

١٠ - أوان الخشوع

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(١).

رويت في أسباب النزول روايات متعددة تتعلق بالآية الشريفة، و«أعدل الروايات» بتعبير صاحب الميزان هي ما عن الأعمش: «لمّا قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا، فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾»(٢).

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

وما دام المقام مقام عتاب، فالاستفهام الموجود في بدء الآية، إذًا، هو للعتاب والتوبيخ، والفعل «يأنِ» هو من أنى يأني بمعنى جاء وقته، فالآية تسأل: ألم يحن الوقت الذي تخشع فيه قلوب الذين آمنوا؟ والخشوع هو تأثّر القلب قبالة العظمة والكبرياء.

هذا الخشوع المطلوب هو خشوع القلب ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وللمفسرين رأيان في تفسير المراد من ذكر الله والنازل من الحق:

أ - «الذكر» يراد به مطلق الذكر، أي كل ما فيه ذكر لله سبحانه وتعالى، و«ما نزل من الحق» يراد به القرآن الكريم، فيكون هذا من عطف الخاص على العام نظرًا لأهمية الخاص، مثل الذي في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[1].

ب - العطف في الآية تفسيري، فكلاهما يراد به القرآن الكريم، وإنما ذُكر القرآن مرتين لأنّ الآية أرادت ذكر وصفين يستدعي بهما القرآنُ الخشوعَ، وهذان الوصفان هما: كونه

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

ذكرًا لله تعالى من جهة، ولا ريب أنّ ذكره يؤدي إلى خشوع القلب واطمئنانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[١]، وكونه من جهة أخرى حقًا نازلًا من الله تعالى، وهذا أيضًا يستدعي خشوعَ القلب لا محالة.

وتنبّه الآية أنّ على المؤمنين ألّا يكونوا كأولئك الناس الذين آتاهم الله الكتب السماوية في الأزمنة السابقة ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، وللمفسرين أقوال في تفسير المراد من طول الأمد، الذي هو في اللغة بمعنى المدة:

أ - طالت الفاصلة الزمنية بينهم وبين أنبيائهم، فقست قلوبهم.

ب - طالت أعمارهم، وأدى هذا الطول إلى قسوة قلوبهم.

ج - طالت أمانيّهم.

د - عدم نزول العذاب الإلهي منذ مدة طويلة.

هـ - كل ما تقدّم[٢].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) يراجع: الأمثل ١٨: ٣٥.

وفي الآية مِنَح دلالية كريمة، أهمها:

المنحة الأولى:

لا بد للمؤمن من السعي الحثيث في سبيل الوصول إلى درجة خشوع القلب، فمن دون ذلك يظل في نظر الله تعالى ملومًا موبّخًا، بدلالة الاستفهام التوبيخي الموجود في الآية الكريمة. وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «كن أخشع ما تكون لربك»[١].

بيد أنّ السؤال المهم الذي يفرض نفسه هو: كيف يكون الخشوع؟

سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يروى عنه - هذا السؤال، فأجاب: «التواضع في الصلاة، وأن يُقبل العبد بقلبه كله على ربه عز وجل»[٢]. وإذا كان واضحًا أنّ الشق الأول من الحديث الشريف ناظر إلى الدائرة العبادية الخاصة، المتمثلة هنا في الصلاة، فإنه من الواضح أيضًا أنّ الشق الأخير واسع سعةَ الحياة نفسها، فالخشوع هو الارتباط بالله تعالى في

(١) ميزان الحكمة ٣: ٣٩.
(٢) نفسه.

المجالات كافة وفي كل النواحي التي يمكن للإنسان أن يتحرك فيها، وهو الالتزام الدقيق بالدين، دونما اقتصار على جوانب منه دون أخرى، وليس الخشوع ادعاءات فارغة ندّعيها أو مظاهر خدّاعة نتظاهر بها أمام الناس!

المنحة الثانية:

للوصول إلى درجة خشوع القلب لله تعالى وسائل مختلفة ذكرتها النصوص الروائية، لكن أهم الوسائل وأنجعها ما ذكرته هذه الآية الشريفة: ذكر الله سبحانه (والقرآن جزء من هذا الذكر)، وهذا مبني على ترجيح الرأي الأول من رأيي المفسرين بشأن المراد من الذكر والنازل من الحق، والسر في هذا الترجيح كونُ العطف التفسيري خلاف الأصل، إذ أنّ الأصل في المتعاطفين أن يكونا متغايرين، والتغاير بينهما موجود في الرأي الأول دون الأخير.

وأيًا ما كان الأمر، فإنّ من الأهمية بمكان أن نعلم أنّ ذكرنا لله تعالى كلما زاد كنّا أقرب إلى حالة الخشوع، والعكس بالعكس. وليست المسؤولية هنا منحصرة في مستوى الأفراد الذين هم مطالبون بالتأكيد بالحرص على دوام ذكره سبحانه، بل ثمة مسؤولية كبيرة في المستوى الاجتماعي

أيضًا، بأن نحرص على أن تكون جلساتنا ولقاءاتنا وأحاديثنا مع غيرنا في المجتمع ملأى بهذا الذكر وعامرة به، وإلا كنّا عرضة للوقوع في داء قسوة القلب، بناءً على ما ورد عن المسيح عيسى عليه السلام: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإنّ القلب القاسي بعيد من الله»[١].

ثم إنّ الطامّة العظمى هي أنّ قسوة القلب تجرّ صاحبها بعيدًا عن الله تعالى حتى تجعله مستحقًا لأنْ يوصف في المنظور الإلهي بالفسق: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، وأي مصير أحلك وأشد عارًا من هذا؟ لذا ليس من المستغرب على الإطلاق أن نجد الإمام محمدًا الباقر عليه السلام يقول: «ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»[٢].

المنحة الثالثة:

ترشدنا الآية المباركة إلى ضرورة الاستفادة من تجارب السابقين: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾، ففي تجاربهم عبرة لكل معتبر، مثلما قال الإمام علي عليه السلام: «إنّ

(١) الأمثل ١٨: ٣٥.
(٢) ميزان الحكمة ٨: ٢٣٨.

للباقين بالماضين معتبرًا، إنّ للآخر بالأول مزدجرًا»[١]، وقال عليه السلام أيضًا: «المدة وإن طالت قصيرة، والماضي للمقيم عبرة، والميت للحي عظة»[٢].

وحقًا يستطيع المرء باستفادته من تجارب الذين تقدموا وسبقوا، بحلوها ومرّها، وإيجابياتها وسلبياتها، ودروسها وعبرها، يستطيع أن ينتفع وينفع الآخرين من حوله، دونما حاجة إلى تكرار الدخول في تجارب مشابهة لتحصيل النتائج ذاتها، وهذه هي الفائدة الكبرى من مراجعة أخبار المتقدمين والأمم السالفة؛ لذا وجدنا أمير المؤمنين عليًّا يقول في بعض خطبه: «وإنّ لكم في القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أين أصحاب مدائن الرسّ الذين قتلوا النبيين، وأطفؤوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟ أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن؟»[٣].

(١) نفسه ٦: ٣٥.
(٢) نفسه.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

المنحة الأخيرة:

إنّ لمرحلة الشباب أهمية خاصة من بين كل المراحل العمريّة التي يمرّ بها أيّ إنسان منّا، فقد تقدم معنا أنّ طول الأمد المذكور في الآية قد يكون المراد منه طول العمر المؤدي إلى قسوة القلب، وفي الحديث النبوي الشريف ما يؤيد هذا المعنى، فقد ورد: «أوصيكم بالشبان خيرًا، فإنهم أرقّ أفئدة، وإنّ الله بعثني بشيرًا ونذيرًا فحالفني الشبان، وخالفني الشيوخ، ثم قرأ: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾»[١].

هذه المرحلة إذا تمكن المرء من قضائها في طاعة ربه، فإنّ هذه الطاعة ستكون أسهل بكثير فيما بعد هذه المرحلة المعروفة بتأجج الشهوات واشتداد الغرائز؛ لذا ورد في الحديث النبوي أيضًا: «إنّ الله تعالى يباهي بالشاب العابد الملائكة يقول: انظروا إلى عبدي ترك شهوته من أجلي»[٢]، وكذلك: «إنّ الله يحب الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله»[٣].

لكن المشكلة كل المشكلة أنّ ثمة من أبنائنا وبناتنا من لا

(١) شبكة المعارف الإسلامية www.almaaref.org
(٢) ميزان الحكمة ٥: ٩.
(٣) نفسه.

يعرف قيمة هذه المرحلة العمرية الذهبية إلا بعد انقضائها، مثلما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «شيئان لا يعرف فضلهما إلا من فقدهما: الشباب والعافية»[١]. وأمثال هؤلاء قد لا يوفقون في قابل أعمارهم للخير ما داموا لم يستفيدوا من مرحلة شبابهم، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «من لم يجهد نفسه في صغره لم ينبل في كبره»[٢].

وقبل ختم الحديث عن الآية الشريفة قد لا يخلو من الفائدة أنْ يشار إلى أنّ هذه الآية المباركة كانت لها آثارها العجيبة في هداية كثير من الناس ودعوتهم إلى الخط الإلهي والالتزام الديني، ورويت في هذا المجال قصص كثيرة، منها مثلًا قصة الفضيل بن عياض الذي كان من الزهّاد المعروفين في عصره (توفي سنة ١٨٧هـ)، إذ «يحكى أنه كان في أول أمره يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وعشق جارية، فبينما يرتقي الجدران إليها سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فقال: «يا رب، قد آن»، فرجع وأوى إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال

(١) مجموعة ورّام ٢: ١١٨.
(٢) بحار الأنوار ١: ١٧٠.

بعضهم: حتى نصبح فإنّ فضيلًا في الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمّنهم، وحكي أنه جاور الحرم حتى مات»[١].

ومن هذه القصص المؤثرة أيضًا ما نقله بعض المفسرين من أنّ أحد رجال البصرة المعروفين قال: «بينما كنت أسير في طريق فسمعت فجأة صيحة، فذهبت متتبعًا آثارها، فشاهدت رجلًا مغمى عليه على الأرض، قلت: ما هذا؟ قالوا: رجل واعي القلب سمع آية من القرآن واندهش، قلت: أي آية؟ قالوا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وفجأة أفاق الرجل عند سماع صوتنا، وبدأ بقراءة هذا الشعر المؤثر:

أما آن للهجران أن ينصرما
وللغصن غصن البان أن يتبسما
وللعاشق الصبّ الذي ذاب وانحنى
ألم يأن أن يبكى عليه ويرحما
كتبت بماء الشوق بين جوانحي
كتابًا حكى نقش الوشي المنمنما

(١) سفينة البحار، الشيخ عباس القمي ٧: ١٠٣.

قال ذلك ثم سقط على الأرض مدهوشًا مرة أخرى، فحرّكناه وإذا به قد أسلم روحه إلى بارئه وربّه»[١].

ومهما كان من أمر صدق هذه القصص المرويّة وواقعيتها، فإنها تظل حاكية عن عمق أثر الآية الشريفة في النفوس الحية والقلوب السليمة.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٨: ٣٨.

١١ - نسوه فأنساهم أنفسهم

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(١).

جاءت هذه الآية المباركة بعد أن دعت الآية المتقدمة إلى التقوى وأكدت أهميتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢). فالدعوة إلى التقوى استتبعت نهي المؤمنين عن أن يكونوا ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾، وقد قيل: إنّ المراد هم المنافقون، وقيل أيضًا: اليهود هم المقصودون، وقد تقدّم ذكرهم في آيات سابقة، لكن ظاهر الآية هو الإطلاق،

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٨.

فالكلام يتناول بإطلاقه كل من نسي الله تعالى، دونما مقتضٍ لتقييده بناس دون آخرين. نعم، هؤلاء نسوا الله فأخرجوه - عن قصد واختيار - من حيواتهم، وصاروا يحيون وكأنْ لا رب لهم ولا إله، فلا عقيدة تنطوي عليها قلوبهم تربطهم به، ولا شريعة قد التزموا بها تجعلهم منفذين لأوامره ومنقادين لطاعته. وكان الجزاء العادل الإلهي لذلك أنْ أنساهم أنفسهم، فصاروا في غفلتهم يتخبطون، لا يعرفون المصالح الحقيقية لذواتهم، ولا يجيدون الطريق القويم الذي يوصلهم إليها، وما يزيدهم مرور الأيام وتعاقب الليالي إلا ابتعادًا عن تحقيق ما فيه صلاحهم الواقعي، فكأنهم نسوا أنفسهم، بل هم قد نسوها فعلًا إذ تنكّبوا سبيل خيرها وفلاحها، وغدوا في طرق الضياع يعمهون.

وتُختتم الآية بالإشارة إليهم بقولها: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، و«الفسق» في اللغة هو الخروج، فإذا خرج الرُطَب من قشره قيل عنه إنه فَسَق. وذكر بعض علماء اللغة[1] أنّ هذه الكلمة ما كانت العرب تستعملها في حق البشر،

(١) نقل الراغب الأصفهاني في مفرداته (مادة «فسق») هذا القول عن ابن الأعرابي.

بمعنى أنّ الإسلام كان هو البادئ في هذا المجال، إذ صار يُطلق على من خرج عن أمر ربه أنه «فاسق».

ومهما كان، ففي الآية مدلولات مهمة:

المدلول الأول:

تعبير الآية الكريمة بـ «النسيان» يدلّ - دلالة صريحة مستفادة من منطوقها - على أنّ الإنسان عارف في الأصل بربه بواسطة فطرته؛ لأنّ النسيان هو غياب صورة الشيء عن الذهن بعد أن كانت حاضرة فيه، فلولا هذا الحضور السابق لما صدق النسيان. أجل، فمعرفة الله تعالى مودعة في فطرة كل إنسان منّا، لكن هذه الفطرة تعتورها شوائب كثيرة، مثل التربية غير الصالحة، والتأثير البيئي السيّء، والعوامل الوراثية، واتّباع هوى النفس الأمارة بالسوء، فيقلّ صفاؤها ونقاؤها تدريجًا، حتى تصل إلى درجة ينطفئ فيها وهجها ويغيب ألقها، وهي الدرجة التي عبّر عنها القرآن الكريم بدرجة «النسيان»، وإذ ذاك يختفي تأثير الفطرة الصالحة من حياة الإنسان، ويظل أسيرًا لغفلته. وإلى هذا يشير الحديث النبوي المشهور: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه»[1].

(١) بحار الأنوار ٣: ٢٨١.

المطلوب، إذًا، من المصلحين الباحثين عن الخير للآخرين والساعين نحو تحقيقه لهم ألّا ييأسوا - من جهة - من صلاح حال الناس؛ ذلك أنّ الصلاح موجود في فطرة كل واحد منهم في الأساس، وهذا الوجود الفطري خير داعٍ إلى التفاؤل وانتظار وصولهم إلى الهدى بالنتيجة، مهما طال ابتعادهم عنه. عن زرارة بن أعين أنه سأل الإمام محمدًا الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾[١] فأجابه: «فطرهم على معرفته أنه ربهم، ولولا ذلك لم يعلموا إذا سُئلوا مَن ربهم ولا مَن رازقهم»[٢].

بيد أن من المطلوب من المصلحين أيضًا - من جهة أخرى - ألّا يتأخروا ولا يتراخوا ولا يسوّفوا في هذه المهمة (أعني مهمة إعادة الناس إلى مقتضى فطرتهم الأصيلة النقية)؛ لأنّ هذه الفطرة البريئة تتلوث وتزداد تلوّثًا كلما ازداد اجتراح الإنسان للمعاصي وارتكابه للمنكرات أو خضوعه للتأثيرات الأخرى المبعدة له عن نداء فطرته الصافية. ومن هنا عدّت الروايات الشريفة انقياد المرء لغفلته اغترارًا منه، فعن الإمام

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) بحار الأنوار ٣: ٢٧٩.

علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «في السكون إلى الغفلة اغترار»[١]. وما ثمة من شك في أنّ طول مدة الغفلة يعطيها المجال للتعمّق وزيادة تأثيرها الخطير في صاحبها؛ لذا توجّب الإسراع في الخلاص من إسار قيودها.

المدلول الثاني:

نسيان الله موجب لتضييع إنسانية الإنسان، فالغافل عنه سبحانه هو غافل، في الحقيقة، عن مصدر كرامته وسرّ تميّزه عن سائر المخلوقات؛ لذا فهو ينسى هذه الكرامة المميزة، ويتنازل بسهولة عنها، ويرتضي لنفسه أن تتنزّل وتسفل إلى مستوى البهائم التي لا همّ لها سوى علفها وتكاثرها، وهكذا ينسى نفسه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾. وما هذا النسيان إلا دليل على عمى البصيرة عنده، العمى الذي نتج من استمرار الغفلة ونسيان الله عنده، مثلما ذكر الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «دوام الغفلة تعمي البصيرة»[٢].

إنّ هذا التضييع للإنسانية يتجلى في جوانب الإنسان المختلفة:

---

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٥٩.
(٢) ميزان الحكمة ٧: ٢٦٧.

فأما في جانبه الفكري فالغافل عن الله تعالى ينسى أنه ليس، في الأصل، سوى فقر محض، وضعف بحت، وعدم تام، وينسى أنّ كل ما لديه من وجود وفير ونعم فإنما هو من الله تعالى، وإذ ذاك ينسى أنّ عليه أن يشكر ربه ويطيعه، وأن يتعامل مع الناس جميعًا من منطلق كونهم عبادًا لله تعالى مثله، فتراه يستحقرهم ويتعالى عليهم، وربما يصل به الأمر إلى أن يدّعي أنه ربهم الأعلى!

وأما في جانبه القلبي النفسي فمن يغفل عن الله تعالى يتعلق قلبه بالدنيا، ويتغلغل فيه حبها والانشداد إليها، وقد لا يتوقف هذا الحب عند المظاهر والطيبات المحللة في الدنيا وحدها، بل يتخطاها إلى التعلق القلبي بأمور حرّمها الشارع المقدس، فترى كثيرًا من الناس الذين نسوا الله يحبون مثلًا الاستماع للغناء، أو الذهاب للأماكن المعروفة بالرذيلة والانحرافات، أو أكل الربا، أو الدخول في المعاملات التجارية المحرمة إلخ.

وأما في جانبه السلوكي العملي فهذا الغافل عن الله سبحانه لن يكون في داخله وازع يمنعه عن صنوف الانحرافات وأشكال الضياع والابتعاد عن الأحكام الشرعية، وستجده لا

يكاد ينهض من وهدة زلّت قدمه إليها حتى يغوص في مستنقع من الآثام ما رأى في داخله مانعًا من خوضه. وما كل ذلك إلا لكونه قد عميت بصيرته من طول ما استمرت عنده الغفلة، مثلما تقدم في حديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

المدلول الثالث:

نسيان النفس كلٌّ واحدٌ مترابط الأجزاء، وليس مجموعة من الأجزاء المتفرقة المتباعدة التي يمكن لأحدنا أن يختار بعضها ويدع بعضها الآخر، فلا يصح أن يقول القائل منّا: أنا آتٍ بالواجبات وتارك للمحرّمات الشرعية وهذا يكفيني، بل لا بد له من عدم نسيان الله بفكره وقلبه أيضًا.

ولا معنى أيضًا لما يمكن أن يلحظ عند بعض الناس من تحكيم أمزجتهم واستحساناتهم الشخصية في مجال تطبيق الأحكام الشرعية، فهم يطبّقون ما شاؤوا منها ويتركون ما لم يتلاءم مع رغباتهم وميولهم، وكأنّ الأحكام الشرعية صارت مجالًا للاختيار والانتقاء بحسب الأذواق الذاتية!

إنّ على المؤمن الحقيقي أن يحذر الغفلة عن الله تعالى بكل مصاديقها وتجلياتها؛ لأنها كلها تعود عليه بأخطر النتائج وأدهى الآثار، وأهمها موت القلب، هذا الداء الخطير الذي

ليس ثمة ما هو أعظم منه في مجال الصلة بالحق سبحانه وتعالى، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «من غلبت عليه الغفلة مات قلبه»[١].

المدلول الأخير:

نتعلم من القرآن الكريم في آيات متعددة منه، وهذه الآية واحدة منها، أنّ ذكر الأمثلة والنماذج الواقعية أسلوب مهم في التربية الفاعلة المؤثرة، فالآية الكريمة لم تقل: ولا تنسوا الله، بل قالت: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾، فهي تريد من مخاطبيها أن يستعيدوا في أذهانهم التجارب الواقعية للناس الذين يعرفونهم ممن نسوا الله تبارك وتعالى، وأن يتعظوا من مصائرهم، إذ أنساهم الله أنفسهم، جزاءً لهم بما اكتسبوه بأنفسهم، فقادهم نسيانهم لذواتهم إلى أسوأ النتائج، وأوصلهم إلى الفسق والخروج عن دائرة عباد الله المطيعين له.

إنّ النظرة القرآنية في هذا المجال دقيقة وصريحة: أن نعتبر بغيرنا، وأن ننتفع من علمنا بنتائج فعلهم؛ كي نكون

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٦٧.

بزماننا وأيامنا عارفين، وعن الاستعداد لما هو آتٍ غير غافلين، وبذا ذكّرنا إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام إذ قال: «إنّ من عرف الأيام لم يغفل عن الاستعداد»[١].

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٦٤.

١٢ - زيادة الهدى والباقيات الصالحات

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[1].

تعرض الآية الكريمة لمظهر مهمّ من مظاهر فضل الله تعالى ولطفه وعنايته بعباده المهتدين، فهو حين يجدهم يسيرون في طريق الهداية بصدق وتفانٍ واهتمام، يزيدهم من لدنه هداية فوق الهداية التي عندهم، ويوفقهم لمزيد من الثبات والرسوخ والاستمرار في الطريق الأمثل الذي اختاروه لأنفسهم. وبما أنّ الهداية في الآية جاءت مطلقة، غير مقيدة بنوع دون آخر، فهي، إذًا، شاملة لكلتا الهدايتين: الدلالة على المقصود، والإيصال إليه. فالله اللطيف الخبير بعباده يزيد

(١) سورة مريم، الآية: ٧٦.

المهتدين منهم دلالة على محالّ رضاه، وييسّر لهم السبل والوسائل للوصول أيضًا إلى تلك المحالّ، جزاءً وفاقًا لما حملوه في دواخلهم من نيات صادقة ولما طبقوه فعلًا في حيواتهم من تحرك في طريق الهدى الرباني.

وبعد هذا البيان، تفيد الآية الشريفة: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾، وقد وردت في الروايات الشريفة معانٍ متعددة لـ «الباقيات الصالحات»:

فمن هذه الروايات ما ذكر أنّ الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس[١].

ومنها ما ربطها بصلاة الليل، فعن الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ من الباقيات الصالحات القيام بالليل لصلاة الليل»[٢].

ومنها أيضًا روايات تحدثت عن أنّ المراد منها ذكر خاص معروف، فمثلًا روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدو أن تجاهدوه، فلا تضجروا عن قول:

(١) مجمع البيان، الشيخ أبو علي الطبرسي، المجلد الرابع، ١٥: ١٦٧.
(٢) تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي الحويزي ٤: ٢٩١.

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإنهن من الباقيات الصالحات فقولوها»[١]، وفي رواية أخرى عنه ﷺ: «وهنّ الباقيات الصالحات»[٢].

وثمة كذلك في الروايات دلالة على أنّ المراد مودة أهل بيت النبي ﷺ، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال للحصين بن عبد الرحمن: «يا حصين، لا تستصغر مودتنا، فإنها من الباقيات الصالحات، قال: يا بن رسول الله ما أستصغرها، ولكن أحمد الله عليها»[٣].

ومن الجليّ أنّ هذه الروايات ليست متعارضة في مدلولاتها؛ لأنها كلها في مقام ذكر مصاديق وتجليات للمفهوم الواسع المستفاد من «الباقيات الصالحات»، وليست في مقام حصر مفاد الآية في المعنى الخاص الذي ذكرته لها. وبناءً على ذلك فالحقّ مع الشيخ الطبرسي في قوله عن «الباقيات الصالحات»: «والأولى حملها على العموم فيدخل فيها جميع الطاعات والخيرات»[٤]، وبتعبير العلامة الطباطبائي:

(١) نفسه.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) مجمع البيان، المجلد الرابع، ١٥: ١٦٧.

«الأعمال الصالحة التي تبقى محفوظة عند الله، وتستعقب جميل الشكر وعظيم الأجر»[١].

ومهما يكن من أمر، فقد ذكرت الآية أنّ الباقيات الصالحات هي ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾، فأما «الثواب» فهو الجزاء، ويقال في الخير والشر، لكن الأكثر استعماله في الخير كما ذكر الراغب الأصفهاني[٢]. وأما «المردّ» فقيل هو مصدر من الردّ، وقيل أيضًا هو اسم مكان بمعنى مكان الرجوع، أي الجنة.

ونودّ، بعد هذا، أن ننهل شيئًا من مَعين الآية الصافي من موارد:

المورد الأول:

الهداية ليس لها حدّ أعلى تتوقف عنده ولا تكون قابلة للزيادة من بعده، بل هي مستمرة استمرارَ حياة الإنسان؛ لذا ينبغي له ألّا يتوقف في مجالها عند مستوى معيّن، بل يسعى بكل وُسعه وقدرته إلى الاستزادة منها بمعنييها المذكورين آنفًا، بمعنى أن يعمّق معرفته بالمقصود، فيقوّي معرفته بعقائده الحقة

(١) الميزان ١٤: ١٠٢.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة «ثوب».

التي هي الأساس لصنع سعادته الدنيوية والأخروية، ثم يحث خطاه للسير الثابت المنتظم في طريق الرشاد والهدى، بلا تلكؤ ولا توانٍ. وعليه أن يكون واثقًا كل الثقة من أنّ الله تعالى إذا وجد منه خلوص النية وصدق الإرادة فسييسّر له السير في طريق الهداية ويوفّقه لمزيد من الهدى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

علاقة المؤمن مع الهداية، إذًا، هي علاقة طلب مستمر وحرص دائم عليها، دونما توقف عند مرحلة معيّنة، أو اكتفاء بدرجة ثابتة، وبتعبير الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام فإنّ هذا ينبغي أن يكون شعارًا للحياة كلها: «ليكن شعارك الهدى»[١].

المورد الثاني:

الهداية المستمرة هي من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ﴾، لكنها لا تأتي جزافًا ولأي إنسان كان، بل لخصوص ﴿ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾، بمعنى أنها تكون لأولئك الذين أرادوا الاهتداء بصدق وتحركوا في سبيله، أي جعلوا من أنفسهم ظروفًا صالحة وأرضية خصبة لتلقّي الهداية الإلهية.

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٢١.

إنّ هذه الحقيقة القرآنية مهمة جدًا ومفيدة لأولئك الناس الذين يحسبون الهداية مسؤولية إلهية فحسب، وكأنْ ليس عليهم إلا أن يجلسوا هانئي البال، مكتوفي الأيدي، منتظرين أن تنزل عليهم الهداية من السماء نزول الغيث، دون أن يكونوا مطالبين بأي فعل من جهتهم، ودون أن يخطر ببالهم أن ينظفوا نفوسهم الوسخة وقلوبهم العفنة لتكون صالحة لاستقبال النمير الصافي العذب من الهداية التي لا تتقبل الكدورات ولا ترتضي الشوائب والقذارات الروحية والمعنوية، فقد ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «هُدي من أشعر قلبه التقوى»[١]، فنيل الهداية من الله تعالى مشروط بأن يُشعر المرء قلبَه التقوى، بأن تكون التقوى هدفًا وشعارًا لهذا القلب؛ كيما يكون بعد ذلك مؤهلًا لاستقبال الهداية. وورد عنه عليه السلام أيضًا أنه قال في كلمة له أخرى: «كيف يستطيع الهدى من يغلبه الهوى؟»[٢]. نعم، إنّ من يفتح باب قلبه لدخول الهوى، ولا يجد في إرادته ما يمنع الهوى من التحكم في شؤونه، لن يكون قادرًا على استقبال الهدى، بل سيظل منه في مكان قصيّ وموضع ناءٍ.

(١) نفسه ١٠: ٣٢٨.
(٢) نفسه ١٠: ٣٣٠.

المورد الثالث:

يرشدنا التعبير القرآني بـ «الباقيات الصالحات» إلى ضرورة أن نعتمد مقياس البقاء في انتخاب أعمالنا واختيار أقوالنا، فلا نختار إلا ما يبقى لنا، أما الأمور الفانية الزائلة فعلينا ألّا نجعلها موضع اهتمامنا وغايتنا في مقاصدنا، وإنْ كنا مضطرين إلى التعامل معها والسعي نحوها لأجل إقامة حياتنا وتنظيم شؤونها وتوفير متطلباتها. لكنّ الفارق واضح جدًا بين هذا السعي المطلوب لأجل استمرار الحياة واستقامتها، وبين اتخاذ بهارج الحياة وملذاتها هدفًا وغاية للحياة.

والمشكلة عند كثير من الناس أنّ الأمور قد يلتبس بعضها ببعض، وتتداخل فيما بينها تداخلًا وثيقًا، بنحوٍ يصعب معه عليهم أن يميّزوا بين ما هو باقٍ وما هو فانٍ، فتراهم قد ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وتجدهم لا يمتلكون الأسس الواضحة التي يستطيعون بها أن يميّزوا بين الباقي والفاني، أي أنهم لا يمتلكون «أشرف النظر» بتعبير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «تمييز الباقي من الفاني من أشرف النظر»[1].

(١) عيون الحكم والمواعظ، علي الليثي الواسطي، ص ٢٠١.

المورد الأخير:

«البقاء» الذي تحدثنا عنه في المورد السابق لا بد أن يكون بالمقياس الإلهي وحده، فالباقي الحقيقي هو الذي يستند بقاؤه إلى الله (جلّت قدرته)؛ ذلك أنّ الآية الشريفة لم تكتفِ بالقول: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ حتى أضافت: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، موضحةً بذلك المقياس الصحيح الوحيد للبقاء. وفي آية قرآنية أخرى نقرأ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ﴾[1].

إنّ المؤمن مطالب - في سعيه نحو ما هو باقٍ - أن يحكّم المقياس الإلهي دون سواه، فالباقي هو ما يراه الله تعالى باقيًا، والفاني هو أيضًا ما كان فانيًا في المنظور الإلهي، وليس ينبغي هنا تحكيم مقاييس أخرى، كالرغبة الذاتية أو الفئوية أو العادات أو التقاليد أو ما إلى ذلك.

ومتى حكّم المؤمن المقياس الإلهي أدرك بوضوح أنْ لا قيمة لكل هذه الدنيا الفانية الزائلة التي يتقاتل الناس عليها ويتكالبون ضد بعضهم في سبيل التسابق نحوها والظفر بها. روي أنّ رسول الله ﷺ وقف على مزبلة فقال: «هلمّوا إلى

(١) سورة النحل، الآية: ٩٦.

الدنيا»، وأخذ خرقًا قد بليت على تلك المزبلة وعظامًا قد نخرت فقال: «هذه الدنيا»[١].

(١) ميزان الحكمة ٣: ٣٢٤.

١٣ - أكل وتمتّع وإلهاء أمل

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾[1].

تتحدث الآية الشريفة الأولى عن الذين كفروا الذين ربما يودّون ويتمنون كونَهم مسلمين، و«رُبَما» هي «رُبّ» المخففة مع «ما» الزائدة، ومن الثابت عند علماء العربية أنّ «رُبّ» حرف جر شبيه بالزائد، وهو يفيد إما التكثير وإما التقليل بحسب ما يستفاد من سياق وروده، وهنا في الآية المباركة اختلف المفسرون فيما يفيده من التكثير أو التقليل كما أفاد الآلوسي[2].

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٢- ٣.
(٢) روح المعاني ١٤: ٣٣٤.

و«يودّ» فعل مضارع بمعنى «يحبّ»، وهو هنا يحمل دلالةً على التمني. لكن متى يتمنى هؤلاء أن يكونوا مسلمين؟ عند المفسرين رأيان:

الرأي الأول: أنّ هذا التمني منهم يتحقق في يوم القيامة حين يدخلون النار ويرون بأعينهم دخول المسلمين الجنة. وهذا الرأي هو المشهور عند المفسرين، وقد دلّت عليه بعض المرويات، مثل الرواية المروية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ينادي منادٍ يوم القيامة يُسمع الخلائق أنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، فثَمّ يودّ سائر الخلائق أنهم كانوا مسلمين»[1].

والرأي الآخر: يكون هذا التمني في هذه الحياة الدنيا، فثمة أناس يتمنون دخول الإسلام، لكن تعلقهم بالدنيا وخوفهم عليها يمنعهم من ذلك، مثلما كانت حالة قيصر الروم الذي أراد اعتناق الإسلام، بعد رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه، لكن منعه خوفه من الناس وحرصه على كرسي مُلكه.

وأيًا كان، فالآية الأخيرة تطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك

(١) الأمثل ٨: ٩.

هؤلاء يعيشون عيشتهم الحيوانية، يأكلون ويتمتعون ويلتهون بأموالهم، فإنّ لهم مصيرًا يتنظرهم، وسوف يواجهونه لا محالة، وهذه لهجة تهديدية واضحة استعملتها الآية.

وفي الآيتين الشريفتين محاور متنوعة للفائدة:

المحور الأول:

على الإنسان العاقل أن يغتنم إمكانات الحاضر وسبل الخير المتاحة بين يديه حاليًا قبل أن يفقد ذلك كله ثم يتحسر عليه في وقت لا يجديه فيه هذا التحسّر، وليأخذ عبرته من هذه الصورة القرآنية المعبّرة عن أولئك الكافرين الذين ضيّعوا دنياهم ولم يستفيدوا منها في الإيمان والعمل الصالح ليواجهوا بعدئذ يومهم الذي فيه صاروا يتحسرون ويتمنون لو كانوا مسلمين.

نعم، هكذا هو الإنسان بطبعه، لا يستشعر قيمة النعمة المتاحة ولا يعرف فضلها ولا يسعى لاغتنامها فيما يقرّبه إلى ربه ويحقق له سعادته الحقة، حتى إذا فقدها أحسّ آنئذ بقيمة ما ضاع وأيقن بتفريطه وسوء تعامله معها. وما أجمل تعبير الإمام الحسن بن علي عليه السلام عن هذا المعنى بقوله: تُجهل

النعم ما أقامت، فإذا ولّت عُرفت»[١].

وقد دلّتنا الروايات الشريفة على صور كثيرة لحالات يتحسر فيها الناس يوم القيامة على إمكانات ووسائل كانت بأيديهم في الدنيا ولم يُحسنوا الاستفادة منها على الوجه المطلوب، منها مثلًا الرواية المروية عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إنّ أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالًا في غير طاعة الله، فورّثه رجلًا فأنفقه في طاعة الله سبحانه، فدخل به الجنة، ودخل به الأولُ النارَ»[٢]. إنه لموقف يمكن أن يتعرض له كثيرون، ومثله مواقف كثيرة تدعونا بلسان حالها إلى الاعتبار والاتعاظ، فنعرف لما بين أيدينا حاليًا قيمته، حتى لا نقع غدًا في الحسرة والندامة على ما بدر منّا من تفريط وتضييع.

المحور الثاني:

انغماس الإنسان في لذائذ الحياة ومُتَعها الحسية قد يودي به إلى نتيجة خطيرة جدًا هي إسكات صوت العقل، فهؤلاء الكافرون طلب القرآن الكريم من النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أن

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١١٥.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ٤٣٢.

يُعرض عنهم لأنهم، بتعبير العلامة الطباطبائي: «لا منطق لهم إلا منطق الأنعام والحيوان العجم، فمن الحريّ أن يُتركوا وما هم فيه، ولا يُلقى إليهم الحجج الحقة المبنية على أساس العقل السليم والمنطق الإنساني»[١].

إنّ العقل، وهو الجوهرة الإلهية الثمينة التي خُصّ بها هذا الإنسان، ينبغي أن يحرّك صاحبه نحو ما فيه خيره، ويجعله يحارب هوى نفسه ويسعى إلى الفوز بالنعيم الإلهي الأبدي، مثلما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «العاقل من غلب هواه، ولم يبع آخرته بدنياه»[٢].

لكن الإنسان قد يصل به الانهماك بالدنيا والانغماس في طيّباتها وزخارفها الخادعة إلى درجة عدم تقبّل سماع صوت العقل إطلاقًا، بل قد يقوده - في آخر المطاف - إلى إسكات هذا الصوت من أساس. وهذه عاقبة وخيمة ينبغي أن يحذرها أولو النُّهى.

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٩٧.
(٢) ميزان الحكمة ٦: ٤٢٠.

المحور الأخير:

الأمل، في حياة كل إنسان منّا، على نوعين: فثمة منه ما هو إيجابي، وهو رحمة إلهية، فبه يعمر الإنسان حياته بالخيرات، ويملؤها عطاءً وجدًا ومثابرةً وإنتاجًا، ولولاه لما تحرك إطلاقًا في أي مجال من مجالات الحياة المختلفة، ولمنعه القنوط والإياس من التفكير في أية فاعلية إيجابية تثري حياته وحيوات الآخرين من حوله. وعن هذا النوع من الأمل روي عن رسول الله ﷺ قوله: «الأمل رحمة لأمتي، ولولا الأمل ما رضّعت والدة ولدها، ولا غرس غارس شجرًا»[١].

وثمة أيضًا من الأمل ما هو سلبي، يقف عائقًا في طريق التكامل البشري، ويحول بين الإنسان والتقدم الحقيقي المطلوب منه. ذلكم هو الأمل الذي وصفته الآية الأخيرة بالملهي: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾، ووصفه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في دعائه بالحابس عن النفع: «وحبسني عن نفعي بُعد أملي (أو آمالي)»[٢].

---

(١) الأمثل ٨: ١١.

(٢) من الدعاء المعروف بدعاء كميل.

وقد لخّص سماحة الشيخ محسن قراءتي أقسام الأمل السلبي الذي ينتقده الإسلام فيما يأتي:

أ - الأمل الطويل، ذلك الذي ينسى معه الإنسان أنه ميت يومًا ما، وأنّ عليه أن يستعد لما بعد هذه الحياة الدنيا.

ب - الأمل الذي يزيد على العمل، فيكون المرء ذا آمال وطموحات عريضة بعيدة، دون أن يكون عمله بالقدر نفسه.

ت - الأمل بلا عمل، مثل كثيرين ممّن يكتفون بالأحلام الوردية بشأن المستقبل من غير أن يحرّكوا ساكنًا لتحقيق ولو بعض تلك الأحلام.

ث - الأمل الملهي الشاغل، وهو الذي يصرف صاحبه عن السير في طريق الحق وتحقيق الأهداف السامية التي خُلق لأجلها.

ج - أمل الخير في غير موضعه، بأن يؤمّل الإنسانُ الخيرَ من الناس السيّئين ومن الأفعال السيّئة[1].

(١) بتصرّف عن تفسير نور (باللغة الفارسية) ٦: ٣١٣.

١٤ - الهداية وشرح الصدر والنور

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

تبتدئ الآية المباركة باستفهام إنكاري، يراد منه بيان أنّ الفريقين لا يستويان عند الله (تبارك وتعالى)، وفي الكلام حذف، إذ ذُكر المبتدأ (مَنْ)، وحُذف الخبر اعتمادًا على دلالة الجملة اللاحقة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، وتقدير الكلام: أفمن شرح الله صدره كالقاسية قلوبهم؟

ومع أنّ الآية لم تذكر الهداية صراحةً، فقد عرّفتها، بناءً على ما أفاده العلامة الطباطبائي[٢] بلازمين من لوازمها:

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٢.
(٢) الميزان ١٧: ٢٥٥.

أ - شرح الصدر للإسلام، بمعنى بسطه وانفتاحه ليسع ما يُلقى إليه من الحق ولا يردّه.

ب - أن يكون الإنسان على نور من ربه، فكأنّ النور مركب يركبه في الحياة، وهذا معناه أنّ بسط الصدر وانفتاحه ليس ساذجًا بلا وعي، بل هو انفتاح واعٍ، يميّز فيه صاحبه بين الحق والباطل، ولا يقبل إلا الحق عن معرفة ودراية.

وبالمثل، فقد عرّفت الآية الضلالةَ أيضًا بلازميها، حين تحدثت عن قساوة القلب من ذكر الله تعالى؛ ذلك أنّ القساوة لازمة تلازم عدم شرح الصدر وعدم النور، فأولئك لا تتسع قلوبهم لنور الحق، نظرًا لسوء اختيارهم وإصرارهم على باطلهم؛ لذا اختتمت الآية بالقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وهذا هو اللازم الآخر للضلالة.

ويحسن بنا أن نعرض في إيجاز لمجالات من بيان الآية الشريفة:

المجال الأول:

الناس متفاوتون فيما بينهم في اهتدائهم وضلالهم؛ ذلك أنّ الاهتداء والضلال على درجات مختلفة، وليسا على درجة

واحدة محددة، فثمة الدرجة العليا من الهداية التي تكون عند من شرح الله صدره للإسلام ويكون على نور من ربه سبحانه، وثمة الدرجة السفلى من الضلال المبين الذي يترافق مع قسوة القلب من ذكر الله، وبين الدرجتين درجات كثيرة متفاوتة.

وما هذا التفاوت والاختلاف إلا نتيجة لتفاوت البشر أنفسهم، في إدراكهم وصفاء نفوسهم وطباعهم وقابلياتهم المختلفة، ما يجعلهم متفاوتين في طريقة تعاملهم مع الهداية الإلهية التي هي متاحة في الأساس لجميع الناس. وقد صوّر لنا الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام هذا التفاوت البشري تصويرًا بيانيًا جميلًا إذ قال: «الناس كالشجر، شرابه واحد وثمره مختلف»[1].

إنّ هذه الحقيقة لجديرة بأن تدعو كل من يسعى إلى الهداية والتربية والإصلاح - في أي مجال اجتماعي مهما كانت دائرته ضيقة أو واسعة - إلى أن يحرص أشد الحرص على تنويع طرائقه ووسائله التي يعتمدها، كيما يستعمل الأسلوب الأنسب للفئة المستهدفة أو الفرد الذي يودّ التأثير فيه، ومن دون هذا التنويع لن تُكتب لجهوده إلا الخسارة

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٢٤٠.

والضياع عبثًا؛ لأنّ الأساليب التربوية الإصلاحية القديمة قد لا تكون فاعلة في حالة الأجيال الجديدة ذات المتطلبات المختلفة، وما يكون ناجعًا مع فرد معيّن ذي بنية نفسية خاصة قد لا يكون بالتأثير نفسه مع فرد آخر له خصوصياته المختلفة.

المجال الثاني:

ترشدنا الآية الشريفة إلى أنّ المربّي الهادي الحقيقي لا يكتفي بالإرشاد النظري وحده، بل يسعى إلى إيصال الآخرين إلى الهداية بنحوٍ عمليّ فعليّ. فقد وصفت الآيةُ اللهَ تعالى بصفة الربّ، و«الربّ في الأصل التربية» مثلما ذكر الراغب الأصفهاني[1]، فهو سبحانه يتعامل مع الناس تعامل المربي الذي يريد صلاحهم وخيرهم، وهذا التعامل منه - جلّت قدرته - لا يقتصر على كونه يدلهم على الصراط المستقيم فحسب، بل يتعدى ذلك إلى إيصالهم إلى المطلوب فعليًا وتطبيقيًا؛ لذا نجد الآية قد عبّرت عن الهداية - كما تقدم - بلازمين من اللوازم العملية الخارجية، وهما: شرح الصدر وإعطاء النور الإلهي.

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة «ربب».

وبناءً على هذا، فالآية المباركة تلفت أنظار كل من يريد لغيره هداية وصلاحًا إلى ضرورة عدم الاكتفاء بالنصح والوعظ والإرشاد، فهذه وحدها لا تكفي، وإنْ كانت لها فوائد لا تُنكر، بل لا مناص للهادي والمربي الحقيقي من النزول إلى ساحة الفعل والممارسة العملية؛ حتى تؤتي جهودُه أُكُلَها، ويتحقق الخير الذي تصبو إليه.

ومن هذا المنظور نجد أنّ الإمام الصادق عليه السلام حين سُئل عن قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]، قال: «من أخرجها من ضلال إلى هدى فكأنما أحياها، ومن أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها»[2]. ولمّا سأل أبو بصير الإمامَ الباقر عليه السلام عن الإحياء المذكور في هذه الآية أجابه عليه السلام: «من استخرجها من الكفر إلى الإيمان»[3]. وواضحٌ ما تعبيري الإماميين بـ «الإخراج» و«الاستخراج» من دلالة واضحة على ما هو مطلوب من تحرّك فعليّ وسعي عمليّ.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٣٢٣.
(٣) نفسه.

المجال الثالث:

إنّ للهداية لوازم معيّنة، فإذا ما أراد الإنسان أن يكون مهتديًا حقًا فعليه أن يسعى إلى الاستزادة من هذه اللوازم وتوفير ما أمكنه منها. وفي الروايات الشريفة دلالات على لوازم متنوعة، فمن ذلك أنّ رسول الله ﷺ لمّا قرأ الآية الشريفة التي هي محل كلامنا قال: «إنّ النور إذا وقع في القلب انفسح له وانشرح»، قالوا: «يا رسول الله، فهل لذلك علامة يُعرف بها؟»، قال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[١].

وقد تقدّم بيان أنّ الآية عرّفت الهداية بلازمين اثنين من لوازمها:

أ - أن تكون الصدور مفتوحة للحق، فلا انغلاق ولا تحجّر، ولا تقليد أعمى للآباء والأجداد، أو خضوع للعادات والتقاليد السائدة، بل شأن الشخصية المؤمنة دومًا هو الاستعداد لتلقّي الحق وتقبّل كل مقتضياته ومستلزماته.

ب - أن تكون عندنا القدرة على تمييز الحق من غيره

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٧: ٢٦٢.

والأخذ به وحده وترك ما عداه. وهذه القضية تستلزم من الشخصية المؤمنة تقوية الجانب العقدي وتعزيزه عندها، حتى لا يختلط الحق والباطل أمامها، وحتى لا تلتبس القيم والأسس القويمة بغيرها مما قد يشبهها كثيرًا بحسب الظاهر.

المجال الأخير:

الضلالة لها لوازمها أيضًا، وقد تحدثت الآية عن:

أ - قساوة القلب، والملاحظ هنا أنّ الآية لم تقل: فويل للضيقة قلوبهم، مع أنّ التعبير بالضيق هو الذي يقابل «شرح الصدر» المذكور أولًا، وإنما قالت: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، وفي هذا التعبير إشارة إلى أنّ ازدياد ضيق القلب شيئًا فشيئًا قد يصل بصاحبه إلى حالة يتحول فيها قلبه إلى حجارة قاسية لا تقبل الهداية أصلًا، في حين أنّ التعبير بالضيق لا يتنافى مع قبول بعض الهدى والنور(١).

على المؤمن، إذًا، أن يحذر كل الحذر من أن تقوده ذنوبه ومعاصيه وابتعاده عن الحق إلى هذه الحالة الخطيرة التي يقسو

(١) يراجع ما ذكره الشيخ قراءتي في حديثه عن الآية في تفسير نور (بالفارسية).

فيها قلبه ويتشبه بالحجارة الصماء الصلدة التي لا مكان فيها لهدى أو خير.

ب - غياب النور الذي يمكن به تمييز الحق، طريقًا إلى الأخذ به والتمسك به. وهذه معضلة كبرى: أن يتخبط الإنسان في سيره ذات اليمين وذات الشمال، مع كونه قد يرغب في اعتناق الحق والتمسك به، لكن المشكلة كامنة في كونه لا يحمل في داخله النور الذي يعينه على التعرّف والتمييز. وما ذلك في الواقع إلا بسبب غلبة الهوى وسيطرته عليه؛ لذا سأل الإمام علي عليه السلام سؤاله الإنكاري البليغ: «كيف يستطيع الهدى من يغلبه الهوى؟»[1]

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٣.

١٥ - الهداية والرزق والإنابة

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾(١).

تبيّن الآية الكريمة دليلين اثنين على توحيد الله (سبحانه وتعالى):

فأما الدليل الأول فهو المذكور في بدئها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾، و«آياته» - التي هي بمعنى العلامات - قد جاءت مطلقة غير مقيدة بأي قيد، فهي تتناول كل الآيات الدالة عليه (جلّ وعلا) وعلى توحيده من آيات آفاقية في الكون ومظاهره وموجوداته، ومن آيات أنفسية في داخل النفس البشرية وكيان الإنسان، ومن معجزات جارية على أيدي

(١) سورة غافر، الآية: ١٣.

الأنبياء والمرسلين، وكل الحجج والأدلة الدالة على الله وتوحيده.

أسلوب الآية الشريفة، في مقطعها الأول، هو أسلوب قصر، نظرًا لكون المبتدأ والخبر معرفتين ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾، فكأنها تقول: إنّ الله هو الوحيد الذي يهدينا إليه، وهذا دليل أول على أنه لا شريك له، إذ لو كان له شريك لكان على هذا الشريك أن يهدينا إلى نفسه بإرسال الرسل والأنبياء وإنزال الكتب السماوية، ومن هذا المنطلق جاء في وصية أمير المؤمنين علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «واعلم يا بنيّ أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته»[1].

وأما الدليل الآخر على توحيد الباري (جلّ وعزّ) فهو الماثل في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾، إذ أنه لا رازق لنا سواه، وهذا دليل على أنه واحد لا شريك له.

لكن، ما المراد من هذا المقطع القرآني؟ هنا آراء عدة عند المفسرين، أهمها:

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٣١، ص ٥٤٢.

أ - السماء هي جهة العلوّ، فكل ما علاك سماء، والرزق يراد به المطر، على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته المسبّبيّة، فقد ذُكر المسبَّب (الرزق) وأريد السبب (المطر).

ب - الرزق هو عبارة عن الأشياء التي يُرتزق بها، والمقصود من التنزيل من السماء: الإبراز من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1].

ح - السماء هي مصدر العناصر الأوّلية التي بها قوام الحياة، فهي مصدر الماء (من المطر)، والنور (من الشمس)، والهواء؛ لذا عبّرت الآية عن الرزق بأنه منزّل من السماء.

وتُختتم الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، وقد عبّرت بالتذكّر على أساس أنّ معرفة الله تعالى

مودعة في الفطرة الأصلية التي فُطر الإنسان عليها، لكنه قد ينساها فيحتاج عندئذ إلى تذكير بها. والفعل «ينيب» هو من ناب نوْبًا بمعنى قَرُبَ أو رَجَعَ.

هذا، وفي الآية مسارات دلالية متعددة:

(١) سورة الحجر، الآية: ٢١.

المسار الأول:

مع كون الله (سبحانه وتعالى) واضحًا كل الوضوح بآثاره وإبداعاته في خلقه، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، فإنّ الإنسان يحتاج في الارتباط الصحيح به إلى «إراءة»، وهذه يتكفل بها الله نفسه برحمته ولطفه وفضله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾.

وحين سُئل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]، قال: «هادٍ لأهل السماء وهادٍ لأهل الأرض»[٢]. فهو يهديهم إليه، ويدلّهم على صراطه المستقيم؛ كيما يتمسكوا بعروته الوثقى التي لا انفصام لها، كل ذلك برحمته التي كتبها على نفسه، وبفضله العميم الذي لا حدود له.

إنّ القرآن الكريم، بمنطقه هذا، يدلّنا على أنّ وضوح الحق وجلاءه لا يعفينا من مسؤولية إيضاحه للآخرين وإراءتهم إياه، فلعلّ بعضهم لم يتّبعه لضعف باصرته أو بصيرته، أو لعلّ هناك قوى شيطانية، من الجن أو الإنس، تسعى إلى التعتيم

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٣٢٠.

على الحق، أو على بعض جوانبه، نظرًا لتعارضه مع مصالحها وأهوائها، وهي لا تقوى على مجابهته إذا ما ظل أمام الأعين واضحًا جليًا؛ لذا تدأب ليلَ نهارَ على تغييبه عن الناس أو تشويه صورته، مثلما نلحظ في يومنا هذا من جهود طاغوتية عالمية لتشويه صورة الإسلام وإبرازه أمام البشر بوصفه دينًا متخلّفًا لا يتناسب مع الحياة العصرية، ولا يلبّي حقوق الإنسان المعاصر، ويدعو إلى الإرهاب والعنف والتخلف!

المسار الثاني:

إذا كان الرزق هو، أولًا وآخرًا، من الله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ فما بال هذا الإنسان يقلق بشأنه، ولا يكاد يطمئن قلبه ولا تستقر حاله بشأنه؟ نعم، هو مطالَب بالسعي والكدّ والتعب في سبيله بلا ريب، لكن عليه في هذا المسعى أن يكون مطمئن القلب إلى أنّ رزقه مكفول لدى بارئه وكالئه الرحيم بعباده. ويا له من تعبير جميل، ذلك الذي عبّر به الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام عن هذا المعنى إذ قال: «عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدّر أقواتهم»[1].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

إنّ الذي لا يصرفه شأن عن شأن قد تكفّل لأصغر مخلوقاته بالرزق، أفيغفل إذًا عن رزق الإنسان الذي هو أكرم تلكم المخلوقات؟ قال الإمام علي عليه السلام واصفًا النملة: «انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تُنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر... مكفول برزقها، مرزوقة بوفقها، لا يُغفلها المنّان، ولا يحرمها الدّيّان، ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس»[١].

ثم ما بال هذا الإنسان يسلك السبل المنحرفة نحو الرزق، ولا يتورع عن المحرّمات لأجل الحصول على رزقه؟ أليس الله هو الرزّاق؟ أفلا يجدر - في منطق العقل - بمن يلتمس منه الرزق أن يتقرب إليه ويتزلف نحوه؟ لقد أكّدت النصوص الشرعية أنّ التقيّد بالأحكام الإلهية والحرص على تنفيذ ما يريده سبحانه منّا يفتح لنا أبواب الرزق ويسهّل لنا نيل مرادنا. فمن هذا ما ورد عن الإمام أمير المتقين علي عليه السلام من قوله: «استعمال الأمانة يزيد في الرزق»[٢].

(١) نفسه، الخطبة ١٨٥.
(٢) ميزان الحكمة ٤: ١١٧.

المسار الثالث:

قرنت الآية المباركة في مقام دلالتها على توحيد الله تعالى بين جانبين مهمّين هما: الهداية والرزق: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾، فهذان الجانبان مقترنان ولا ينبغي التفكيك بينهما. وهذا الاقتران بينهما نجده ماثلًا أيضًا في الروايات الشريفة، فنقرأ فيها على سبيل المثال كلمة الإمام علي عليه السلام في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك، أو أضلّ في هداك»[1].

إنّ هذا الاقتران لا يمكن أن يكون خلوًا من الدلالة، فليس في القرآن كله ما جاء صدفةً أو جزافًا بلا فائدة. وليس ببعيد أن تكون الدلالة هنا في الإرشاد إلى أنّ هداية الناس إلى الحق لا يمكن أن تتأتى في صورتها الحقيقية التامة ما لم تطمئن قلوبهم إلى وجود رزقهم، فالبطون الغرثى والقلوب التائقة إلى لقمة تسد بها الجوعة أو كسوة تستر بها العورة لا تكون مؤهلة للاستماع إلى الحق وقبوله، مهما كان ناصعًا لائحًا. هذا حين نتحدث عن السواد الأعظم من الناس،

(١) نفسه ١٠: ٣٢٣.

وليس عن الخواص الذين ينشدون الحق مهما بلغت التحديات.

هذه الحقيقة استفادت منها الكنيسة والمؤسسات التنصيرية الغربية أيما استفادة في مساعيها لنشر النصرانية بين الشعوب المختلفة في عالمنا، لا سيما في الدول الأفريقية الفقيرة. فتراها دائمًا تقرن دعوتها الدينية بإقامة المشروعات التنموية في أوساط المحتاجين، كالمستشفيات والمدارس ودُور إيواء الأيتام وما شابه ذلك. وهذا النحو من المساعي هو الذي يحقق أثره ويؤتي ثماره في نفوس المخاطبين وعقولهم. وفي المقابل، أهمل المسلمون هذه الناحية، أو لم يعطوها الأهمية التي تستحقها، فلم تكن لجهودهم الدَعَويّة الدينية التأثيرات المأمولة في الأوساط غير المسلمة، على الرغم من قوة أدلتهم ونصوع حججهم التي يعتمدون عليها.

المسار الأخير:

لا مناص لنا جميعًا من الإنابة إلى ربنا (سبحانه وتعالى). والإنابة - كما تقدم - تحمل معنيين اثنين:

المعنى الأول: هو التقرّب إليه (جلّ شأنه) دومًا، فالشغل الشاغل للمؤمن لا بد أن يكون تقرّبه إلى ربه، وعليه في هذا

المجال أن يحرص على أن يكون هذا التقرّب في نماء مستمر، نوعًا وكمًّا، فبه يظفر بسعادة الدارين، ويفوز بقرّة العين. وليكن واثقًا من أنّ تقرّبه إلى ربه سيقابله تقرّب أكثر من الرب إليه، برحمته ولطفه وتوفيقه وفضله، ففي الحديث القدسي: «يا بن آدم، قم إليّ أمشِ إليك، وامشِ إليّ أهرول إليك»[١].

والمعنى الآخر: هو الرجوع إليه (تعالى اسمه) بالاستغفار والتوبة، فإنه يحب من عباده - إذا أضلّهم الشيطان يومًا أو اقتادتهم نفوسهم الأمّارة بالسوء إلى غير الصراط المستقيم - أن يرجعوا إليه مستغفرين تائبين، فيفتح في وجوههم أبواب صفحه ومغفرته، ويشملهم بعظيم عنايته وكبير رحمته التي كتبها على نفسه، فعن النبي المصطفى ﷺ أنه قال: «ليس شيءٌ أحب إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة»[٢].

(١) ميزان الحكمة ٨: ١١٣.
(٢) نفسه ١: ٥٤١.

١٦ - خطوات الشيطان

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[١].

هذا المقطع من الآية الشريفة صريح الدلالة على نهي الذين آمنوا عن اتّباع خطوات الشيطان؛ ذلك أنّ هذه الخطوات لن تقودهم إلا إلى الفحشاء والمنكر اللذين لا يني الشيطان يأمر بهما ويحاول اقتياد المؤمنين والمؤمنات في سبيلهما. وقد فهم معظم المفسرين من كلمة «الشيطان» هنا معناها المتبادر منها وهو إبليس الرجيم، بيد أنّ من المفسرين أيضًا من ذهب إلى أنّ المراد «كل مخلوق مؤذٍ وفاسد ومخرّب»[٢]، وبذا تكون الدائرة الدلالية للكلمة عنده أوسع بكثير، لكن المعنى الأول أظهر من الآية وأوضح.

(١) سورة النور، الآية: ٢١.
(٢) الأمثل ١١: ٤١.

وفي هذا المقطع القرآني من الآية المباركة معطيات مهمة:

المعطى الأول:

الابتداء في الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يفيد أنّ إيمان المؤمن ينبغي - بل يجب - أن يكون ذا أثر عملي حقيقي في الحياة، بأن يزجر صاحبه عن اتّباع خطوات الشيطان، ويردعه - دونما إكراه - عن سلوك السبل الانحرافية التي تبعده عن ربه وعن صراطه المستقيم. هكذا هو الإيمان الحقيقي المطلوب وجوده في قلب كل مؤمن، فعن النبي الأعظم ﷺ أنه قال: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن الإيمان ما خلص في القلب وصدّقته الأعمال»[1].

وإذا لم يكن الإيمان هكذا، وكان المؤمن عبدًا لشهوته وغرائزه، يدور معها كيفما دارت، وتقتاده إلى حيث شاءت، فإنّ هذا الإيمان لن يظل مستقرًا في القلب، بل لن تمضي الأيام والليالي حتى يتلاشى ويضمحلّ. وهذا ما حدّثنا عنه

(١) ميزان الحكمة ١: ٣٠١.

رسول الله ﷺ أيضًا إذ قال: «من كان أكثر همّه نيل الشهوات نُزع من قلبه حلاوة الإيمان»[١].

المعطى الثاني:

إنّ النهي الوارد في الآية عن اتّباع خطوات الشيطان يحمل دلالة على أنّ امتثاله مقدور للناس جميعًا، فليس الامتناع عن هذا الاتّباع خارجًا عن طوق القدرة البشرية، وإلا لم يكن ثمة من معنى لهذا النهي.

هذه الحقيقة فيها إيقاظ لأولئك الذين يظلون في ظلمات غيّهم وانحرافهم يعمهون، من دون أن يردعوا أنفسهم أو يزعوها عنها، وتجدهم في أثناء ذلك يحاولون أن يتذرعوا بسيطرة عوامل - مثل الوراثة أو التربية أو البيئة - على إراداتهم، وكأنهم لا يمتلكون بإزاء هذه العوامل حولًا، ولا يجدون عن الاستسلام لها محيصًا. وهذا كله، في الحقيقة، من تسويلات الشيطان ووساوسه. وإلا فلو عاد المرء إلى عقله، لوجده يدعوه إلى طاعة ربه وينهاه عن اتّباع خطوات الشيطان، ولكان له في الاحتماء بظلّه منجى وحصن، تقوى

(١) نفسه ١: ٣٢٣.

فيه إرادتُه، ويتغلب به على شيطانه، وقد روي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قوله: «إنّ العقلاء تركوا فضول الدنيا، فكيف بالذنوب؟ وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض»[١].

نعم، إنّ عقلًا يتكفل للمرء بإبعاده عمّا لا ينبغي، كيف لا يكون صالحًا وقادرًا على إبعاده عمّا يجب عليه الابتعاد عنه، أي الذنوب؟ لكن التسويلات الشيطانية الكاذبة تجعل على بصر الإنسان غشاوة وفي أذنيه وقرًا، فيغفل عن هذه الحقيقة ولا يكاد يراها أو يسمعها.

المعطى الثالث:

إذا كان العمل الشيطاني مبنيًّا على سياسة الخطوات والتدرّج في الإغواء، كما هو نص الآية الشريفة، فلا يحسبنّ أحدنا أنه قد انتصر على شيطانه، وأرداه بالضربة القاضية، كما يعبّرون، حينما يجد نفسه قد تمكن من مخالفته وتخلص من إطاعته في وقت ما. إنّ الشيطان من طبعه ألّا يستسلم، وهو الذي طلب من ربه إمهاله لكي يمارس الإغواء إلى يوم

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٤٩.

يُبعثون، فمن المهم، والحال هذه، أن نظل دومًا يقظين حذرين؛ لئلا نؤخذ في حين غفلة أو ضعف بشري.

وقد لخّص بعض المفسرين[١] خطوات الشيطان المتدرجة فيما يأتي:

الخطوة الأولى: الوسوسة، وقد تحدثت عنها آيات قرآنية متعددة، منها قوله تعالى في قصة خلقة آدم عليه السلام: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٢].

الثانية: المسّ، وهو المشار إليه في الآية المباركة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٣]، ويذكر المفسرون وأهل اللغة أنّ «المسّ يقال في كل ما ينال الإنسانَ من أذى».

الثالثة: الدخول في القلب البشري، كما ذكره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[٤].

---

(١) الإشارة هنا إلى الشيخ محسن قراءتي في «تفسير نور» (باللغة الفارسية) ١٠: ٤٥٤.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

(٤) سورة الناس، الآية: ٥.

الرابعة: البقاء في الروح، فيصبح الشيطان قرينًا لهذا الإنسان لا يفارقه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[١].

الخامسة: ضمّ الشيطان الإنسانَ إلى حزبه، فيتحول الشيطان إلى زعيم مطاع، مثلما يطيع المتحزبون، الخاسرون ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٢].

السادسة: تتعمق العلاقة بين الشيطان والإنسان وتتوثق أكثر حتى تغدو علاقة ولاية بينهما، فيصبح الشيطان وليًا للإنسان، ويتناسى هذا الخاسر ولاية ربه: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[٣].

الأخيرة: يحوّل الشيطان الإنسانَ إلى شيطان مثله، فلا يحتاج بعدئذ إلى شيطان يغويه، بل يسعى هو إلى إعانة الشيطان على الآخرين، حتى الأنبياء منهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٩.

لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1].

المعطى الأخير:

إذ قد اتضح أنّ عمل الشيطان قائم على الخطوات والتدرج في الإغواء، فلا بد أن يتضح أيضًا مدى أهمية أن يحذر الإنسان الخطوة الأولى إذا أراد أن يسلم من الوقوع في شراك الشيطان ومصائده؛ لأنّ اتخاذ الخطوة الأولى سيترتب عليه اتخاذ خطوات وخطوات، ولن ينتبه الإنسان بعدئذ إلى وخامة ما يسير إليه إلا حين لا يجديه الندم ولا تنفعه الحسرات!

ويخطو أحدنا، في العادة، خطوته الأولى في طريق الشيطان حين يستصغر الذنب، ويستهين بشأنه، فيسهل عليه أمره، ولا يجد في نفسه مانعًا من ارتكابه، وينفتح إذ ذاك باب المعاصي على مصراعيه أمامه، ولا يجد ما يحول بينه وبين أنواع الذنوب، ذنبًا ذنبًا. من هنا وجدنا هذا التأكيد الشديد في الروايات الشريفة والتحذير من الاستهانة بالذنوب

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

واستصغار شأنها، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام مثلًا أنه قال: «لا مصيبة كاستهانتك بالذنب»[١]. ومن الجليّ ما تعبير الإمام «لا مصيبة» من خطورة تعجز الأذهان عن تصوّرها، وتكلّ الألسن والأقلام دون بيانها.

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٥٧.

١٧ - التنزيل والرحمة

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾[١].

﴿حمٓ﴾ من الحروف المقطعة التي اختلفت بشأنها آراء المفسرين قديمًا وحديثًا، وكانت لهم فيها أقوال متعددة، لعلّ أهمها القول القائل بأنها جاءت لتحدي العرب وإثبات كون القرآن ليس من صنع بشر، بل هو من عند رب العزة (جلّت قدرته). فهذه الحروف المقطعة أنتم تعرفونها أيها العرب، وهي نفسها التي تصنعون منها أشعاركم وخطبكم التي تفاخرون بفصاحتها وبلاغتها الأممَ، فما بالكم عاجزين عن أن تصنعوا منها كلامًا يجاري القرآنَ الكريم ويوازيه في

(١) سورة فصلت، الآيتان: ١، ٢.

إعجازه الأسلوبي؟ أليس هذا دليلًا واضحًا لا يقبل المراء على كون القرآن الكريم غير بشريّ الصنع؟

هذا فيما يرتبط بالحروف المقطعة بنحو عام. فإذا تحدثنا عن هذه السورة، بنحو خاص، ألفينا المفسرين يذكرون تفسيرين إضافيين:

أ - ﴿حمٓ﴾ هو اسم من أسماء هذه السورة.

ب - الحاء إشارة إلى الحميد، والميم إشارة إلى المجيد، وهما من أسماء الله الحسنى.

وقوله تعالى بعدئذ: ﴿تَنزِيلُ﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا تنزيل، والمصدر هنا جاء بمعنى اسم المفعول، أي: هذا القرآن منزَّل.

والفارق بين «التنزيل» الذي وصف به القرآن نفسه في مواضع منها هذه الآية الشريفة، وبين «الإنزال»

الذي وصف نفسه به أيضًا في مواضع أخرى كقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[1] يتمثل في أنّ التنزيل هو النزول التدريجي، في حين أنّ الإنزال هو النزول الدفعي.

(١) سورة القدر، الآية: ١.

وللمفسرين مجموعة من الآراء في بيان وجه الجمع بين كون القرآن نازلًا بالصورة الدفعية والصورة التدريجية كلتيهما، لعلّ أبرزها الرأي الذي ذهب إلى أنّ القرآن الكريم قد نزل نزولين: نزل أولًا بصورة دفعية واحدة في ليلة القدر على قلب النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بمضامينه وقواعده العامة، ثم نزل آخرًا بالتدريج، بألفاظه وقوالبه وصياغاته.

إنّ هذا التنزيل للقرآن الكريم كان ﴿من الرحمن الرحيم﴾، وهذان الوصفان كلاهما من مادة واحدة هي الرحمة، وهي - حين تُستعمل في النطاق البشري - تعني التأثر الخاص الذي ينتاب القلبَ البشري حين مواجهته ما يتطلب التأثر. لكنها حين تُستعمل في حق الله تعالى تعني الفيض الإلهي والإعطاء لرفع الحاجة الموجودة عند المخلوقات[١].

وفي مقام التفرقة بين هذين الوصفين (الرحمن والرحيم) ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة»[٢]، وقد

(١) يراجع: الميزان في تفسير القرآن ١: ١٨.
(٢) نفسه ١: ٢٣.

فسّر العلامة الطباطبائي ذلك في ميزانه بأنّ «الرحمن» اسم خاص بالدنيا وحدها، لكنه يدل على صفة عامة تتناول المؤمن والكافر جميعًا، فهذه الصفة تعني الإفاضة التكوينية الإلهية التي تعمّ الجميع، دونما اختصاص بالمؤمنين. وبإزاء ذلك فإنّ «الرحيم» اسم عام للدنيا والآخرة، لكنه من الجهة الدلالية يدل على صفة مختصة بالمؤمنين وحدهم، وهي الرحمة الخاصة التي تفيد معنى الهداية إلى الصراط القويم والظفر، من بعد، بالسعادة الحقة.

وبعد، فهنا شؤون دلالية نود الاستفادة منها:

الشأن الأول:

إرادة هداية الآخرين وإصلاح شأنهم تتطلب النزول والوصول إليهم حيث هم؛ لذا وجدنا القرآن الكريم نفسه - وهو العالي الرفيع في شأنه ومقامه - لا يؤدي هذه الوظيفة ولا يهدي الناس للّتي هي أقوم حتى يكون «تنزيلًا»، وهذا له تجليات وصور:

أ - **التنزّل النفسي**، بألّا يرى المصلح نفسه، وهو في حال الهداية والإصلاح، عاليًا والآخرين أنزل منه وأخفض شأنًا، بل عليه في البدء، كيما يصل إلى أهدافه، أن يتواضع للآخرين، ويتّسم تعامله معهم بخفض الجناح وفق التعبير

القرآني: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١]، ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢].

ويقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في صفة الأنبياء: «ولكنه سبحانه كرّه إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفّروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين»[٣].

إنّ المفارقة المؤثرة في هذا المقام تتمثل في أنّ المرء كلما ازداد تواضعًا في داخله ارتفع عند الناس شأنًا، فصار تقبّلهم منه وأخذهم عنه أكثر وأعمق، وهذا ما نبّه عليه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: «من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه ضعيف، وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبّر وضعه الله، فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير، حتى لَهُوَ أهون عليهم من الكلب والخنزير»[٤]، وفي المعنى نفسه قال باب حكمته علي عليه السلام: «العاقل يضع نفسه فيُرفع، والجاهل يرفع نفسه فيُوضع»[٥].

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.
(٤) ميزان الحكمة ١٠: ٥١٠.
(٥) نفسه.

ب - **التنزّل الفكري**، بأن يراعي الهادي المربي المستوى الفكري لمخاطبيه، فلا يحدّثهم بما لا تستطيع مداركهم استيعابه، ولا يخاطبهم من علياء فكره ومستواه الثقافي المرتفع، بل يتنزل إلى مستواهم كي يفهموه؛ لذا نجد القرآن الكريم شديد الحرص على وصف البلاغ الإلهي الذي يتحمله المرسلون بأنه «مبين»: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[١]، ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢].

وقد اشتهر - في هذا المعنى - الحديث النبوي الشريف: «أُمرنا معاشر الأنبياء أن نخاطب الناس على قدر عقولهم»[٣]، وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس؛ لأنّ فيهم القوي والضعيف، ولأنّ منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله، إلا أن يسهّل الله له حمله وأعانه عليه من خاصة أوليائه»[٤].

إنّ في سِيَر المعصومين عليهم السلام مواقف يظهر منها تجنبهم بيان بعض الحقائق التي قد لا تحتملها أذهان الناس حتى إذا

(١) سورة النحل، الآية: ٣٥.
(٢) سورة يس، الآية: ١٧.
(٣) بحار الأنوار ٢٥: ٣٨٦.
(٤) الميزان في تفسير القرآن ١٧: ٢٧٦، نقلًا عن «التوحيد» للصدوق.

سُئلوا عنها، فمن ذلك مثلًا ما نقله صاحب الميزان عن الاحتجاج للطبرسي من أنّ سائلًا سأل الإمامَ الصادق عليه السلام: «أخبرني عن الشمس أين تغيب؟» فأجابه عليه السلام بقوله: «إنّ بعض العلماء قال: إذا انحدرت أسفل القبة دار بها الفلك إلى بطن السماء صاعدة أبدًا إلى أن تنحط إلى موضع مطلعها»، وقد علّق عليه صاحب الميزان العلامة الطباطبائي قائلًا: «وفي النسبة، أعني قوله: «قال بعض العلماء» بعض الإشارة إلى أنّ هذا القول لم يكن مرضيًا عنده عليه السلام، ومع ذلك لم يسعه أن يسمح بحق القول في المسألة، كيف؟ وإذا ساقتهم سذاجة الفهم في فرضية سهلة التصور عند أهله في تلك الأعصار هذا المساق، فما ظنك بهم لو ألقي إليهم ما لا يصدّقه ظاهر حسّهم ولا يسعه ظرف فكرهم؟»[1].

ج - **التنزّل العملي**، وهذا يتحقق حين لا يستنكف الهادي المصلح عن خدمة مجتمعه، فلا يتعالى على تفقّد حوائج الناس، في المجالات كافة، ولا يترفع عن السعي في قضائها، بحجة عدم ملاءمة ذلك لشخصيته أو موقعه الاجتماعي مثلًا. وعليه أن يتذكر دومًا ما أعدّه الله سبحانه من

(١) الميزان ١٣: ٣٧٥- ٣٧٦.

أجر عظيم ومقام رفيع لمن يقضي حاجات المؤمنين، فعن خاتم المرسلين محمد ﷺ أنه قال: «من قضى لمؤمن حاجة قضى الله له حوائج كثيرة، أدناهنّ الجنة»[١].

وليس الأمر منحصرًا في قضاء حاجة المؤمن بنحو فعليّ، بل يكفي أن يكون المربي الهادي صادقًا في قصده إدخال السرور على أخيه المؤمن بمجرد محاولته تيسير أموره وتحقيق مراده، هذا وحده يكفي لينال من الثواب أعظمه، ومن المقام أشرفه عند ربه، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «من أدخل السرور على مؤمن فقد أدخله على رسول الله، ومن أدخله على رسول الله ﷺ فقد وصل ذلك إلى الله، وكذلك من أدخل عليه كربًا»[٢]. وحقًا لتحار العقول من مدى أهمية إدخال السرور على المؤمن في المنظور الإلهي، إلى الدرجة التي جعلت الإمام محمدًا الباقر عليه السلام يقول: «ما عُبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن»[٣].

(١) بحار الأنوار ٧١: ٢٨٥.
(٢) نفسه ٧١: ٢٩٧.
(٣) نفسه ٧١: ٢٨٨.

الشأن الثاني:

التعامل الإلهي مع خلقه تعامل ينطلق من منطلق الرحمة، فالله تعالى قد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[١]، وتتنوع مظاهر رحمته هذه وتجلياتها بين رحمة خاصة بالمؤمنين وأخرى عامة تتناول الجميع، ورحمة في الدنيا وأخرى تعمّ الدنيا والآخرة، ذلك أنه هو ﴿الرحمن الرحيم﴾. أليس في تأكيد القرآن هذا الجانبَ وإلحاحه في تكرار بيانه للناس دعوة لهم للتخلّق بالرحمة في تعامل بعضهم مع بعض، وفي تعاملهم مع أنفسهم أيضًا؟

لقد ربطت الأحاديث الشريفة بين حصول الإنسان على الرحمة الإلهية وبين سعيه هو إلى تطبيق جانب الرحمة على نفسه وعلى الآخرين، فيرحم نفسه بألّا يعرّضها لما فيه سخط الله وغضبه، ويرحم الآخرين فلا يسلبهم حقوقهم ولا يحمّلهم ما لا يطيقون. روي، مثلًا، أنّ رجلًا قال للنبي ﷺ: «أحب أن يرحمني ربي»، فما كان منه ﷺ إلّا أن خاطبه قائلًا: «ارحم نفسك، وارحم خلق الله، يرحمك الله»[٢].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢.
(٢) ميزان الحكمة ٤: ٧٦.

ويا لها من هداية هادفة وناجعة هذه التي يتولاها القرآن الكريم، حينما يبرز عظمة الرحمة الإلهية، وجلالة تحدياتها وآثارها، ليتخذ من ذلك كله وسيلة دعوة للناس إلى ما فيه صلاح شأنهم وسعادة مجتمعاتهم والإنسانية كلها. فلو عرف الناس حقًا أهمية الرحمة وطبقوها في حياتهم لما سمعتَ عن حق يُضيّع، أو حرمة تُنتهك، أو مظلوم يُظلم في هذا العالم كله.

الشأن الأخير:

أفاد العلامة الطباطبائي (قدس سره) أنّ ذكر «الرحمن» مع «الرحيم» في الآية يفيد كونَ القرآن الكريم قد نُزّل لصلاح الدنيا والآخرة[١]، هذا شأن بالغ الأهمية ويستحق منّا التأمل والتدبر فيه.

إنّ كون القرآن هادفًا إلى صلاح دنيانا - إضافةً إلى أخرانا بطبيعة الحال - لا بد أن يدعونا إلى السعي الحثيث إلى تطبيق أحكامه في كل حياتنا، فلا يبقى ثمة مجال بمبعدة عن أحكام شرع الله، لا في الاقتصاد ولا الاجتماع ولا الثقافة ولا

(١) الميزان في تفسير القرآن، ١٧: ٣٥٩.

السياسة ولا التربية ولا التعليم إلخ، بل تكون هذه كلها مصطبغة بصبغة الله التي فطر الناس عليها، وتتضافر جميعًا في إضفاء الصبغة الشرعية الإلهية على الحياة كلها، إذ ذاك فقط يمكن للبشرية أن تنعم بالصلاح الذي يبتغيه القرآن لها.

نعم، لا محيص للمؤمن عن زرع هذه القناعة في داخله، وغرسها في وجدانه؛ ليسير في طريق الله تعالى باطمئنان وطوع خاطر، وإن استعصى ذلك عليه فلا مناص من الصبر على ما يريده الله منه، ليكون له في ذلك خير كثير. هذا مما أوصى به رسول الإنسانية ﷺ صاحبه أبا ذر الغفاري رضي الله عنه إذ قال: «فإن استطعت أن تعمل لله عز وجل بالرضى في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإنّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا»[1].

(١) ميزان الحكمة ٥: ٢٥٩.

١٨ - الذكر الإلهي

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[١].

تأتي هذه الآية الكريمة بعد مجموعة من الآيات المتحدثة عن نعم الله تعالى على المسلمين - وأهمها نعمة بعثة النبي الأكرم محمد ﷺ وتعيين قبلة خاصة بهم - لتدلّهم على طريق لزيادة النعم، وهو طريق ذكر الله سبحانه، فهم إذا ذكروه ذكرهم، وبذكره إياهم يتحقق لهم المزيد من النعم.

السؤال الدلالي المهم هنا هو: ما معنى ذكرنا نحن لله سبحانه؟ وما معنى ذكره هو لنا؟ وهل معنى الذكر متّحد في الحالتين؟

(١) سورة البقرة، مقطع من الآية: ١٥٢.

يذكر العلماء[١] لهذه الكلمة «الذكر» ثلاثة استعمالات:

١ - الذكر في مقابل الغفلة، فالذكر هو العلم بالعلم، في حين أنّ الغفلة هي انتفاء العلم بالعلم مع وجود هذا العلم في أصله، فكوني غافلًا عن شيء ما لا يعني أني لا أعلم به، بل أنا في الأصل أعلم به، لكني في هذه اللحظة غافل عن علمي هذا، أي انتفى علمي بعلمي، والذكر ما هو بضد ذلك، أي أنّ الذاكر عالم بعلمه.

٢ - الذكر في مقابل النسيان، فإذا كان النسيان هو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن، كما يقولون، فالذكر هو بعكس ذلك، فالذاكر للشيء هو غير الناسي له.

٣ - الذكر بملاحظة آثاره، مثلما أنّ النسيان قد يُطلق بملاحظة آثاره أيضًا، فأنت مثلًا إذا قضيت حاجة صديقك وقتَ حاجته فقد ذكرته، وإنْ أنت لم تقضِ حاجته فقد نسيته، وإنْ لم تكن له ناسيًا أو عنه غافلًا.

هذه المعاني الثلاثة آتية كلها في حالة الحديث عن ذكرنا نحن لله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾، فذكرُنا له قد يكون بمعنى عدم

(١) منهم العلامة الطباطبائي في الميزان ١: ٣٣٩.

الغفلة عنه، كما قد يكون بمعنى عدم نسيانه، وأيضًا قد يكون بمعنى عدم ترك آثار الذكر. لكنّ هذه المعاني لا تأتي كلها في الحالة الأخرى، أعني في حالة الحديث عن ذكره سبحانه لنا ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾؛ لوضوح أنّ ربنا - جلّ شأنه - منزّه عن الغفلة والنسيان.

وبعد، ففي هذا المقطع من الآية المباركة مجموعة من القضايا، نعرض لأهمها فيما يأتي:

القضية الأولى:

نحن مطالبون بأنْ ندرك أهمية الذكر الإلهي في حياتنا، وأن نسعى إلى تحقيقه عمليًا، فلهذا الذكر آثار عظيمة لا يمكننا أن نتصورها كلها، ومن أهمها:

أ - ذكر الله تعالى يستلزم ذكر كل أسمائه الحسنى، وصفاته الكمالية والجلالية، والذاتية والفعلية، وهذا فيه أكبر العون للناس كي يعيشوا متصفين بما يريدهم الله تعالى أن يتصفوا به في ذواتهم وفي علاقاتهم بالآخرين، فما أجمل الحياة إن سعى الناس جميعًا إلى الاتصاف والتعامل من منطلق الرحمة والود والكرم والعفو والسلام والإحسان... إلى آخر أسمائه الحسنى!

ب - ذكره سبحانه يمنح قلب المؤمن صلابة وقوة وعزمًا، وإحساسًا راسخًا بعزته وكرامته، كيف لا؟ وهو مرتبط بمصدر كل قوة وعظمة وعزة في هذا الوجود. إنّ هذا الإحساس الوجداني لحقيق بجعل المؤمن ثابتًا كالجبل أمام كل أعاصير الفتن التي تعصف به وبأمته، متمسكًا أشد ما يكون التمسك بقيمه ومقدساته وغير مستعد للتنازل عنها، مهما قويت الإغراءات أو اشتدت التحديات في وجهه.

ج- الذكر الإلهي هو الذي يمنح عباداتنا العمق والمعنى، فهو جوهرها الذي لولاه لبقيت قشورًا وممارسات غير ذات معنى، فهو ذا القرآن الكريم يجعل الذكر غاية للصلاة، وهي عمود الدين وأهم عباداته: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1].

ونجد في الروايات الشريفة بيانات متعددة لحقيقة كون الصوم ليس يعني شيئًا غير الجوع والعطش لولا الذكر الإلهي، فعن سيد البرية محمد ﷺ أنه قال: «رُبّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورُبّ قائم حظه من قيامه السهر»[2]، وعن سيد الأوصياء علي عليه السلام قوله: «كم من صائم ليس له

(١) سورة طه، الآية: ١٤.
(٢) ميزان الحكمة ٥: ٤٦٩.

من صيامه إلا الظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا العناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم»[١].

القضية الثانية:

علينا أن نحرص على أن ننال من الذكر أعلى المراتب والدرجات، فلا نكتفي بالذكر اللساني وحده، فهذا إما أنه أثر من آثار الذكر الحقيقي (بناءً على الاستعمال الأخير المتقدم للذكر، أي الذكر بملاحظة آثاره)، وإما أنه أول مراتب الذكر وأدناها، وفي كلتا الحالتين لا ينبغي للمؤمن أن يقنع به ويتوقف طموحه عند حده.

إنّ الذكر المطلوب، أساسًا، هو الذكر القلبي، وهذا له درجات متدرجة:

أ - ذكر الله عند المعصية، فيمتنع المؤمن عن الوقوع في المعصية لكونه ذاكرًا ربه (جلّ شأنه)، فيستحيل هذا الذكر حصنًا حصينًا وجُنة واقية لحماية الملتجئ من شرور المنكرات، مع بقاء قدرته على الإتيان بها، وعلى هذا المعنى يدلّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

(١) نفسه.

ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[١]. وفي الحديث النبوي الشريف: «ثلاث لا تطيقها هذه الأمة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كل حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله تعالى عنده وتركه»[٢].

ب - أن يستحضر العبد، في كل حين، كون الله تعالى يراه، فحالته تكون - وفق تشبيه بعض العرفاء - كحالة من يوقن أنّ وراء الزجاج الداكن من ينظر إليه دون أن يتمكن هو من رؤيته. وهذه هي، في الأساس، حالة التقوى الناتجة من الإيمان واليقين بوجود الله سبحانه وتعالى، وقد ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «التقوى ثمرة الدين وأمارة اليقين»[٣].

ج - أن يصل العبد إلى الدرجة التي يرى فيها ربه، وقطعًا لن يراه عيانًا؛ فهو سبحانه لا تدركه الأبصار، وإنما يراه

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٢) الأمثل ١: ٣٠٧. ومن الجليّ أنّ التعبير بعدم الإطاقة لا يعني عدم القدرة أصلًا، بل المقصود عدم تحمّل هذه الأمور وعدم الصبر عليها.
(٣) ميزان الحكمة ١٠: ٦٤٢.

بقلبه، مثلما كانت حالة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي سأله ذعلب اليماني يومًا: «هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟» فقال عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟» فقال: «وكيف تراه؟»، فأجاب عليه السلام: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. قريب من الأشياء غير ملابس، بعيد منها غير مباين...»[1].

إنّ هذه الرؤية القلبية عند الإمام عليه السلام ماثلة - بقرينة حديثه عن قرب الله من الأشياء وبُعده عنها في الوقت ذاته - في أنه يتعامل مع كل ما في الوجود على أساس أنه مخلوق لله تعالى، فما ينظر إلى شيء إلا ويرى الله بقلبه. الحالة هنا - كما ذكر بعض أهل العرفان لتقريب الفكرة - هي كحالة أحدنا إذا تأمّل لوحة فنية معلّقة أمامه، فيستطيع من خلالها أن يدرك إبداع الرسّام الذي أبدعها.

القضية الأخيرة:

من الضرورة بمكان أن نبذل قصارى وُسعنا في سبيل أن نحصل على ذكر الله تعالى إيانا، أي أن نحرص على أن نكون

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩، ص ٢٥٨،

ممن يذكرهم الله سبحانه من عباده؛ ليس لأنه - جل شأنه - في حاجة لذكرنا، فهو الغني بذاته عن كل خلقه، بل لأننا نحتاج إلى ذكره إيانا، فهذا الذكر هو وسيلتنا إلى تحقيق سعادتنا المبتغاة، فعن رسول الله ﷺ أنّ الله تعالى قال: «اذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان»[١].

إنّ من اللافت للنظر، والجدير بالاهتمام، أنّ الأحاديث الشريفة قد ربطت ربطًا وثيقًا بين كيفية ذكرنا نحن الله تعالى وكيفية ذكره هو إيانا، فهو سيذكرنا بالطريقة نفسها التي نذكره بها. ورد عن سيد المرسلين ﷺ أنه قال: «قال تعالى: ابنَ آدم، اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، ابنَ آدم اذكرني في خلاء أذكرك في خلاء، اذكرني في ملاء أذكرك في ملاء خير من ملائك، وقال: ما من عبد يذكر الله في ملاء من الناس إلا ذكره الله في ملاء من الملائكة»[٢].

وإذا كان هذا هكذا، فلا ينبغي لذوي الألباب، إذًا، أن

(١) الميزان في تفسير القرآن، ١: ٣٤٠.
(٢) نفسه ١: ٣٣٩.

يغفلوا عن ذكر ربهم في كل أوقاتهم، وفي شتى مناحي حيواتهم؛ كيما يحظوا بالذكر الإلهي الدائم لهم، ويفوزوا بذلك بخير الدنيا والآخرة.

١٩ - تزيين الشيطان

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[١].

جاءت هذه الآية المباركة، حسبما ذكر بعض المفسرين[٢]، في سياق تسلية النبي الأكرم محمد ﷺ حين كان يرى أنّ ثمة من يكذّب بدعوته الحقة، فهي تذكّره بأنّ طريق المرسلين من قبله مليء بأمثال هؤلاء المكذبين، فليست الحالة التي يعانيها ﷺ بدعًا من الحالات في تاريخ الرسالات السماوية كلها.

نعم، فالأمم المتقدمة كان لها الشيطان بالمرصاد، مثلما

(١) سورة النحل، الآية: ٦٣.
(٢) منهم الشيخ قراءتي في «تفسير نور» (باللغة الفارسية)، ٦: ٤١٥.

هو لأمّة خاتم الرسل ﷺ، فزيّن لهم أعمالهم القبيحة البعيدة عن الحق، بأنْ جعلهم يرون غير الحق حقًا، وغير الحسن حسنًا، أو جعلهم يرونه أحسن مما هو عليه في الواقع، والنتيجة هي أنهم لا وليّ لهم سوى الشيطان نفسه، فهو وليّهم، بمعنى أنه «قرينهم أو ناصرهم، يعني لا ناصر لهم»[١].

وبعد، ففي بعض ألفاظ الآية اختلافات عند المفسرين في فهمها، وهذه أهم آرائهم:

١ - المعنى أننا أرسلنا إلى أمم من قبلك ممن لم ينقرضوا إلى زمانك يا رسول الله، كاليهود والنصارى والمجوس، فزيّن لهم الشيطان فاتّبعوه، وما زال الشيطان وليًا لمن بقي منهم اليوم، أي يوم نزول الآية الشريفة[٢].

٢ - المراد الأمم الهالكة كعاد وثمود، والمقصود من «اليوم» الذي يكون الشيطان وليًا لهم فيه هو عالم البرزخ.

٣ - ليس المعنيّ بضمير الجمع «هم» متحدًا في الآية، بل هو متعدد، فالمراد أنّ الشيطان قد زيّن للأمم السالفة، وهو اليوم وليّ قريش والمكذبين في زمانك يا خاتم المرسلين.

---

(١) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ٢: ٣١٨.
(٢) هذا هو الرأي الذي قوّاه صاحب الميزان ١٢: ٢٨٣.

٤ - ثمة من ذهب أيضًا إلى أنّ المراد بـ «اليوم» هو كل مدة الدنيا.

وفي الآية جهات نتوقف فيها:

الجهة الأولى:

تزيين الشيطان للإنسان هو طريق تسلّطه عليه، فبالتزيين يسلس له قياده، ويسهل عليه توجيهه إلى حيث يشاء من المعاصي والمنكرات، مثلما قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الشيطان موكّل به، يزيّن له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها»[1].

أول شيء يجب على العاقل في هذا المجال، إذًا، هو أن يراجع نفسه، ويخضع كل آرائه ومعتقداته وأفكاره الشخصية للاختبار الدقيق، بكل أمانة ذاتية وصدق وموضوعية، ليتأكد كل التأكد من أنه ليس خاضعًا لسياسة الشيطان هذه في التزيين، ولو في بعض القضايا والمجالات. فالخوف، كل الخوف، من أن يكون الشيطان محرّكًا الإنسانَ إلى تبنّي بعض الآراء، من دون أن يكون منتبهًا إلى ذلك، فعن الإمام جعفر

(١) ميزان الحكمة ٥: ٨٩.

الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الشيطان يدبّر الإنسانَ في كل شيء»[١]. ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفهم السر في الحث المتكرر في الوصايا الدينية على أن يكرر المسلم الدعاء لربه بأن يريه الحق حقًا ليتّبعه، ويريه الباطل باطلًا فيجتنبه.

وإذا كان أحدنا معرّضًا دومًا لأنْ يكون في معرض تزيين الشيطان من حيث لا يدري، فمن الحريّ به، والحال هذه، أن يحرص على استماع النصح من أهله، وألّا تأخذه العزة بالنفس وتمنعه عن تقبّله، فرُبّ نصيحة كانت سببًا للارتداع عن غواية، ورُبّ ناصح صار وسيلة نجاة. عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «اتّبع من يبكيك وهو لك ناصح، ولا تتّبع من يضحكك وهو لك غاشّ»[٢].

وفي سِيَر العلماء الأبرار نجد الرغبة الأكيدة في الاستماع إلى النصح حتى من تلامذتهم، من دون أي تعالٍ أو ترفّع عن القبول، فالسيد المرحوم أبو القاسم الخوئي - وهو المرجع الديني الكبير المعروف بعلمه وتقواه - كان يخاطب طلابه

(١) نفسه.
(٢) نفسه ١٠: ٦١.

بقوله: «أطلب منكم أن تذكّروني كلما رأيتم مني تصرفًا خاطئًا»[١].

الجهة الثانية:

علم المسلم بأنّ التزيين هو الأسلوب الأمثل للشيطان في إغواء الناس وإبعادهم عن طريق الحق والهدى، ينبغي أن يدفعه إلى العمل في الاتجاه المضاد، أي في اتجاه إبراز الحق وإظهاره واضحًا جليًا أمام الناس جميعًا؛ كي يروه فيتبعوه ولا يخطئوه، وبذا يكونون متصفين بالكياسة التي تحدث عنها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إذ سُئل: «أي الناس أكيس؟» فأجاب: «من أبصر رشده من غيّه، فمال إلى رشده»[٢].

صحيح أنّ الحق هو، في حد نفسه، واضح صريح بيّن؛ لذا ورد في حديث الإمام علي عليه السلام أيضًا: «الحق أبلج، منزّه عن المحاباة والمراءاة»[٣]، بيد أنّ من الصحيح أيضًا أنّ الشيطان - ومعه كل قواه الداعمة له في هذا العالم - كثيرًا ما يعمد إلى التلبيس على الناس، بأن يشبّه لهم الحق بالباطل،

(١) قصص وخواطر، الشيخ عبد العظيم المهتدي البحراني، ص ٢٧٤.
(٢) بحار الأنوار ٦٧: ١٠٦.
(٣) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٤.

والباطل بالحق، من طريق الإكثار من إلقاء الشبهات عليهم، فتختلط أمامهم الرؤية، وتضيع ملامح الحق، وصدق الإمام علي عليه السلام حين قال عن الشبهة: «وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم الضلال، ودليلهم العمى»[١].

إنّ مما لا مراء فيه أنّ الشيطان وكل أعوانه وأدواته في هذا العالم يسعون إلى إبراز صورة مشوّهة زائفة عن الإسلام، بأن يبرزوا ما ليس بحق حقًا، وأن يظهروا الباطل الذي ما أنزل الله به من سلطان في لبوس الحق، فصار قتل الأبرياء وانتهاك الحرمات وتفجير المساجد واستعباد الناس وارتكاب الجرائم الوحشية المتنوعة نوعًا من الانتصار للدين والاستعادة لمجده الغابر. وهذا تزيين شيطاني لا بد أن يعرف المسلمون الغيورون على دينهم مسؤوليتهم في إزائه، بأن يعملوا على إبراز الحق في صورته الواقعية، لتظهر للناس عدالة الإسلام وإنسانيته وروحه الحضارية الواعية المنفتحة، وتفتضح الصورة الزائفة التي يسعى الشيطان لتزيينها ولستر كل مكره وعداوته للحق وراءها.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣٨.

الجهة الأخيرة:

إذا نظرنا إلى الأخطاء الصادرة من الآخرين والانحرافات التي يقعون فيها على أنها من تزيين الشيطان فهذا سيرشدنا، بنفسه، إلى الطريق الأمثل للتعامل معهم. إنّ هذه النظرة الواقعية كفيلة بجعلنا نتعامل مع هؤلاء من منطلق الرحمة بهم والسعي إلى هدايتهم إلى الحق وإنقاذهم - بكل روح إنسانية منفتحة على الآخر - من مكائد الشيطان ومصائده.

هكذا نقترب من الآخرين، ونتفهّم شؤونهم، ونتقبل واقعهم، ثم ننتقل إلى مرحلة السعي إلى استنقاذهم وانتشالهم مما هم فيه، فتسود روح التعاون والمحبة والإخاء، بدلًا من غلبة عقلية التفكير والإقصاء والإلغاء التي تسود في كثير من أرجاء عالمنا الإسلامي المعاصر؛ نتيجة سوء تصرف الكثيرين وعدم قدرتهم على تفهّم حقيقة كون الاختلاف سنّة كونية وواقعًا لا مجال للتنكّر له، غير أنه لا ينبغي أن يقود إلى الخلاف والنزاع، فيما إذا عرفنا كيف نتعامل معه تعاملًا حكيمًا عقلائيًا.

لقد دلّت الروايات الشريفة على أنّ الشياطين تتقصد المؤمنين أكثر من غيرهم، بل هم المستهدفون في الأساس،

فعن الإمام الصادق عليه السلام قوله مثلًا: «إنّ الشياطين أكثر على المؤمنين من الزنابير على اللحم»[١]. أفليست هذه الحقيقة مدعاة إلى أن يعذر المؤمنون بعضهم بعضًا، ويتحمل بعضهم إساءة بعض؟ ففرقٌ كبيرٌ بين أن يكون أخي المؤمن - الذي يختلف معي في بعض التفصيلات والقضايا - قاصدًا إيذائي تعنّتًا وكرهًا ومكابرة للحق، وبين أن يكون ما صدر منه في حقي ناجمًا عن تزيين شيطاني سيطر عليه، ودعاه إلى فعل ما فعله في حقي.

(١) ميزان الحكمة ٥: ٨١.

٢٠ - استباق الخيرات

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[١].

ذكر المفسرون لهذا المقطع من الآية الكريمة ثلاثة تفسيرات:

الأول: ما ذهب إليه معظمهم من أنّ الحديث هنا هو عن قضية تغيير اتجاه القبلة في صدر الإسلام من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وقد اختلفت الروايات التاريخية في تعيين تاريخ هذه القضية، لكن أكثرها يدل على أنها كانت في رجب من السنة الثانية للهجرة. بناءً على ذلك، فالآية تريد أن تفيد المسلمين أنّ تعيين القبلة في اتجاه معيّن ليس حكمًا تكوينيًا ثابتًا لا يقبل تغييرًا أو تحويلًا، بل إنه حكم تابع لما تقتضيه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

مصالح كل قوم، وهذه المصالح قد تتبدل في وقت ما، فيقتضي ذلك تبديل اتجاه قبلتهم، فلا ينبغي لكم أن تشغلوا أنفسكم في البحث في مثل هذه الأمور والتشاجر فيها، فاتركوا ذلك، واشتغلوا بدلًا منه بالاستباق إلى الخيرات.

الثاني: التفسير الجبري الذي يذهب إلى أنّ المراد هو أنّ كل إنسان منّا قد قُدّر عليه بنحو الجبر أن يسير في اتجاه معيّن، فليس له أن يغيّر ما كُتب عليه، وسيسير كل واحد من البشر في الاتجاه الذي رُسم له، مجبورًا مكرهًا دونما قدرة له على تغيير اتجاهه.

هذا التفسير هو، في الواقع، تفسير ضعيف؛ أولًا من جهة أنّ فكرة الجبر نفسها فكرة ضعيفة لا تصمد أمام البحث والنقد، وقد تكفلت الكتب العقدية المفصلة بالرد عليها من جهات متعددة لسنا هنا بصددها، لكن يكفينا أن نشير إلى أنّ هذه الفكرة تقود إلى بطلان فائدة إرسال الرسل والأنبياء، وإنزال الكتب السماوية، وجعل الثواب والعقاب، فأية فائدة لكل ذلك ما دام أحدنا مجبورًا على الأعمال التي يأتي بها؟

وآخرًا، هو تفسير ضعيف من جهة أنّ قوله تعالى في نهاية المقطع الشريف: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ سيكون تكليفًا بغير

المقدور، إذ ما معنى أن يطلب الله من الناس أن يستبقوا الخيرات وهو يعلم أنهم مجبورون، وليسوا مفوّضين في أعمالهم كي يستبقوا أو لا يستبقوا؟

الأخير: اختار بعض المفسرين جعل هذا المقطع القرآني في منزلة قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[١]، أي أنّ كل إنسان إنما يعمل في هذه الحياة الدنيا العمل الذي يتوافق مع قابلياته وسجيّته وطبيعته واستعداداته الخاصة، دونما جبر، وإنما بمعنى أنّ هذه القابليات تكون مقتضية لأن يتحرك كل واحد منا في الاتجاه الذي يتناسب معها[٢].

هذا التفسير مقبول ووجيه في حد نفسه، لكنه هنا لا يتلاءم كل التلاؤم مع السياق الذي ورد فيه هذا المقطع القرآني الشريف، فهو مسبوق وملحوق بآيات تتحدث عن موضوع تغيير القبلة؛ لذا يكون التفسير الأول أرجح من غيره في تفسير المقطع. ومن الواضح أنّ «الوجهة» هي معنى الجهة والجانب، أي ما يُتوجه إليه.

إنّ أكثر ما ينبغي أن يشغلنا في هذا المقطع القرآني

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٤.

(٢) يراجع ما ذكره الشيخ قراءتي في «تفسير نور» (باللغة الفارسية)، ١: ٢٢٩.

المبارك هو دعوته الصريحة المباشرة إلى استباق الخيرات. فإذا كانت الحالة المطلوبة من الإنسان في مجال الخيرات هي حالة «الاستباق»، فإنّ هذا يتطلب من كل متسابق أن يراعي أمورًا:

الأمر الأول، التركيز الذهني:

لا مناص لكل متسابق - في أي سباق كان - من أن يجعل تركيزه الذهني منصبًّا على السباق وحده، فهو الذي ينبغي أن يستأثر بفكره وتوجّهه واهتمامه، من دون أن يسمح للملهيات والشواغل الجانبية بأن تستقطب أفكاره أو تستهوي انتباهه.

ولمّا كان السباق الأساسي للإنسان هو سباقه للآخرة، فإنّ هذا يتطلب منه أن يختصه باشتغاله الذهني، مثلما أوصاه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: «اجعل همّك وجدّك لآخرتك»[1].

صحيحٌ أنّه لا بد لهذا الإنسان من أن يخطط لحياته الدنيا أيضًا، ويتطلب هذا منه أن يوليها شيئًا من تركيزه الذهني،

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٦٤.

لكن النظرة الإسلامية في هذا المجال تطالب المؤمنَ بأن يفكر في دنياه بوصفها مزرعة وممرًا إلى الآخرة، فيكون اهتمامه بها ناتجًا من اهتمامه الأصلي بآخرته، أي أنه يتخذ من دنياه عونًا على آخرته، مثلما روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «نعم العون الدنيا على الآخرة»[١].

الأمر الثاني، عدم الانشغال العملي بعيدًا عن السباق:

إذا كانت حياتنا الدنيا كلها سباقًا إلى الآخرة؛ لأجل الظفر بالنعيم الإلهي والنجاة من العقاب، وإذا كانت هذه الدنيا كلها لا تضاهي الآخرة، بل لا تساوي شيئًا يُذكر في إزائها، فهي أدنى من كل شيء مثلما ورد أنّ يهوديًا أتى الإمام عليًا عليه السلام فسأله عن مسائل، وكان فيما سأله: «لم سُميت الدنيا دنيا ولم سُميت الآخرة آخرة؟» فقال عليه السلام: «إنما سُميت الدنيا دنيا لأنها أدنى من كل شيء، وسُميت الآخرة آخرة لأنّ فيها الجزاء والثواب»[٢].

أقول: إذا كان ذاك كذلك، فإنّ العاقل منّا عليه أن

(١) نفسه ٣: ٢٨٥.
(٢) بحار الأنوار ٥٤: ٣٥٥.

يحرص كل الحرص على ألّا يشتغل عمليًا، وهو في ميدان السباق، بأي عمل يؤخره عن السباق أو لربما يعوقه من حيث يدري أو لا يدري عن الأهداف السامية للحياة. وهذا يعني أنّ علينا أن نوظف كل مشاغلنا الدنيوية في طريق آخرتنا، ولنذكر أمثلة:

- لا بد أن يكون سعيُنا إلى الكسب المشروع إطاعةً لأمر الله تعالى الذي أمرنا بالمشي في مناكب الأرض وتحصيل رزقه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1]، وليس ينبغي لهذا السعي أن يكون منبجسًا من حب الدنيا والتعلق القلبي بزينتها.
- اللقاءات الاجتماعية المختلفة والجلسات مع الأصدقاء والمعارف يجدر بنا أن نجعلها تنطلق من منطلق الاستجابة لما يريده الدين منّا من تواصل مع المؤمنين وتوثيق لرابطة الأخوّة معهم، وليس من منطلق التملّق الكاذب والتزلّف المرائي.
- حضورنا مناسبات الأفراح والأتراح (مثل حفلات

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.

الزواج ومجالس العزاء والفاتحة) يحسن بنا أن نجعله لإدخال السرور على المؤمنين وعدم إيذائهم؛ لأنّ الله سبحانه أراد منا أن نفعل ذلك، فنحن نتقرب إليه تعالى بهذه الفاعليات الاجتماعية التي نؤديها، ولسنا نفعلها من منطلق التحسّب الاجتماعي لرضا هذا الإنسان وتضايق ذاك، حينما يكون هذا التحسّب معزولًا عن الآخرة والتفكير في أمر الله (جلّ شأنه).

الأمر الثالث، توظيف كل الطاقات والإمكانات:

مثلما يجب على كل متسابق يودّ الفوز في سباق من السباقات الرياضية المعهودة في الحياة أن يوظف كل إمكاناته البدنية والفكرية والنفسية والروحية والاجتماعية في سبيل هذا الفوز، فكذلك يجب على كل متسابق في طريق الخيرات أيضًا أن يوظف كل ما هو متاح أمامه من إمكانات ووسائل وطاقات، دونما أي نوع من أنواع التراخي أو الكسل أو التباطؤ، فقد ورد عن رسول الإنسانية محمد ﷺ أنه قال: «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة»[١].

(١) ميزان الحكمة ٦: ٧٥.

إنّ توظيف «كل» الإمكانات والطاقات يستدعي منّا ألّا نهمل أي جانب من الجوانب التي يمكننا توظيفها في طريق أهدافنا العليا الأخروية، فليس مقبولًا مثلًا أن نصب كل اهتمامنا على الجانب العبادي الخاص في الإسلام (مثل الصلاة والصوم والحج. . .) ونتناسى الجوانب الأخرى من حياتنا ونتركها نهبًا لأهوائنا وشهواتنا.

الأمر الرابع، حُسن استثمار الزمن:

من المعروف عند المتسابقين الرياضيين ما للزمن من أهمية قصوى في نتيجة السباق، فرُب متسابق قد يفوق متسابقًا آخر في الرتبة لمجرد تقدّمه عليه بجزء صغير من أجزاء الثانية الواحدة! هذه حقيقة معروفة في السباقات العادية، لكن من العجب أننا نهملها أو نقلل من شأنها حينما نتعامل مع السباق الأخطر المصيري الذي يتحكم في نتيجة كل وجودنا في الحياة، فترانا نضيّع الساعات والأيام والليالي فيما لا يجدينا نفعًا، بل لعلّه يؤخرنا ويعوقنا عن سباقنا.

إنّ هذا التفريط في الزمان والإهمال لقيمته يبدو مستغربًا جدًا من الشخصية المسلمة التي تجد قرآنها يؤكد أهمية الزمان إلى درجة أنه يُقسم بأجزاء وتجليات منه، مثل: العصر،

والفجر، وليال عشر، والليل، والصبح. . . ، وتجد أيضًا أحكام شريعتها تعمل على تنظيم وقت المسلم بدقة: فلكل صلاة وقتها، وللصوم وقت، وللحج وقت. . . وهكذا.

وإذا ما عادت الشخصية المسلمة إلى ما تقوله الروايات الشريفة في هذا المجال فإنها واجدةٌ توصيات مهمة ومواعظ مؤثرة حقًا، من قبيل الكلمة المروية عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إنّ الليل النهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك فخذ منهما»[١]، وهي الكلمة التي عرف منزلتَها المرحومُ العلامة الشيخ محمد جواد مغنية، المؤلف الإسلامي الشهير، فوضعها في لوحة في مكتبته؛ لينظر إليها فيتجدد نشاطه للتأليف والبحث العلمي[٢].

ويمكن أن تُذكر لحسن استثمار الزمن مظاهر متعددة، أهمها:

أ - أداء الصلاة الواجبة في أول وقتها، فلا ينبغي للمؤمن أن يشتغل عن الاستجابة لأمر ربه الداعي إلى الصلاة الواجبة

(١) نفسه ٦: ٥٣٩.

(٢) ذكر الشيخ مغنية بنفسه هذا في مقدمة كتابه «علم أصول الفقه في ثوبه الجديد»، ص ٥.

بأي شغل شاغل، مهما كان. فلا أهم من الصلاة التي هي عمود الدين، ولا يصح لأي عمل آخر أن يستدعي تأخيرها عن أول وقتها، فهو أحسن أوقاتها، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «فضل الوقت الأول على الأخير كفضل الآخرة على الدنيا»[١].

ب - التبكير إلى صلاة الجمعة، فجدير بالمسلم الذي يرغب في الظفر بالثواب الأجزل يوم الجمعة ألّا يتأخر عن صلاة الجمعة، بل يحسن به أن يسعى إلى الحصول على درجة السبق إليها في صحف الملائكة، فقد ورد عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إذا كان يوم الجمعة بعث الله تعالى ملائكة يقفون على أبواب المساجد، ومعهم صحف من نور، وأقلام من نور، فيكتبون الأول فالأول، فإذا سمعوا النداء حضروا الخطبة»[٢].

واللافت للنظر أنّ الروايات دلّت أيضًا على أنّ هذا السبق إلى صلاة الجمعة يقود إلى السبق إلى دخول الجنة، ففي حديث الإمام محمد الباقر عليه السلام عن يوم القيامة ورد:

(١) ميزان الحكمة ٥: ٤٠١.
(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا حسين النوري، ٦: ٧٠.

«. . . ثم يكون يومُ الجمعة شاهدًا لمن حافظ وسارع إليه، ثم يدخل المؤمنون على قدر سبقهم إلى الجنة»[١].

الأمر الأخير، الاستفادة من المكان:

يسعى كل متسابق، في العادة، إلى الاستفادة من إمكانات المكان الذي يجري فيه السباق، فيبتدئ من نقطة محددة في المكان، وينتهي إلى نقطة أخرى محددة أيضًا، والسباق كله يكون ضمن مسار محدد بكل دقة، دون ترك أي مجال لأي انحراف أو خروج عنه.

إنّ المتسابق نحو الخيرات يُنتظر منه أن يستفيد أيضًا من الإمكانات المكانية المتاحة له أحسن استفادة، ولهذا الأمر تجليات متنوعة، منها:

أ - حضور المساجد للصلاة، فكل متسابق نحو الخيرات يعلم علم اليقين أنّ صلاته في المسجد أعظم أجرًا وأجزل ثوابًا عند ربه من صلاته في بيته، لا سيما إذا كان جارًا للمسجد، فحريّ به أن يغنم من هذا المكان المبارك (المسجد)، ويبذل وسعه ليجعل صلواته الواجبة فيه، فقد ورد

(١) نفسه.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «من مشى إلى المسجد لم يضع رجلًا على رطب ولا يابس إلا سبّحت له الأرض إلى الأرضين السابعة»[١].

ب - الصلاة في مقدّم صفوف الجماعة، فجدير بمن التحق بصلاة الجماعة أن يسعى إلى أن تكون صلاته في الصف الأول، فهو أعظم الصفوف أجرًا، فإن لم يتمكن ففي الصف الثاني، وإلا ففي الثالث، وهكذا، فهذا نحو من أنحاء استباق الخيرات، ولا ينبغي للمؤمن أن يترك للشيطان مجالًا لتزهيده فيه، فقد روي عن النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إنّ خير الصفوف صف الرجال المقدّم، وشرّها المؤخّر»[٢]، وعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال: «إنّ الصلاة في الصف الأول كالجهاد في سبيل الله عز وجل»[٣].

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ٣: ٤٨٣.
(٢) نفسه ٥: ٣٨٧.
(٣) نفسه.

٢١ - الصلاح، عملًا وذاتًا

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١).

هذا المقطع القرآني الشريف ورد في سياق قصة نبي الله سليمان عليه السلام الذي ورد مع جنوده وادي النمل، وكان هناك ما كان مما نقله القرآن: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾(٢).

(١) سورة النمل، الآية: ١٩.
(٢) سورة النمل، الآيات ١٧- ١٩.

نحن هنا، إذًا، مع دعاء النبي سليمان عليه السلام الذي يريد من ربه أن يوزعه شكر نعمته، والإيزاع هو الإلهام، فـ «أوزعني» بمعنى ألهمني، وقد ذُكر أنّ الإيزاع هو غير التوفيق؛ ذلك أنّ الأخير هو تيسير الأسباب الخارجية، في حين أنّ الأول هو الإلهام الداخلي.

وأيًا ما كان الأمر، فسليمان عليه السلام يسأل ربه أن يلهمه شكر النعمة، فالشكر الحقيقي يحتاج إلى إلهام نفسي؛ كيما يعرف الإنسان قيمة النعمة الإلهية التي يجهلها كثيرون، ويعرف بعدئذ كيفية شكر ربه عليها.

والملاحظ أنّ سليمان عليه السلام لم يكتفِ بشكر النعمة التي أنعمها الله عليه هو شخصيًا، حتى تعدّاها إلى النعمة التي أنعمها على والديه؛ لأنّ النعمة التي عند الوالدين هي نعمة عند الولد أيضًا بصورة غير مباشرة، فهما الأصل في وجوده. ثم إنّ الولد يرث مما عند أبويه من أمور وصفات مادية ومعنوية، فهذا كله يستدعي أن يشكر الولد النعمة الإلهية الموجودة عند والديه مثلما يشكر النعمة التي هي عنده. وتجدر الإشارة إلى إنّ هذا الحديث القرآني الصريح عن والدي سليمان فيه تنزيه لأمه وأبيه داود عليه السلام عما نسبته التوراة الحاضرة المحرّفة من فحشاء إليهما.

ويطلب سليمان عليه السلام أيضًا من ربه إلهامه أن يعمل عملًا صالحًا يرضاه له، فالعمل الصالح يحتاج، كذلك، إلى إلهام بأهميته وقيمته وبطريقته وكيفيته أيضًا. وأخيرًا يختتم الدعاء بسؤال إدخاله إياه في عباده الصالحين، أي بسؤال جعله منهم، وهذه قضية سنتوقف عندها لاحقًا إن شاء الله.

وثمة، في هذا المقطع القرآني الكريم، جوانب مهمة، أبرزها:

الجانب الأول:

ضرورة أن يسعى الإنسان إلى إيجاد محرّك داخلي في نفسه يحرّكه نحو الهدى والصلاح والخير، فسليمان النبي عليه السلام يطلب من ربه الوازع لشكر النعمة وللصلاح، أي أن يكون في داخله إلهام يحركه في هذا الاتجاه الذي يريده الله تعالى أن يتحرك فيه.

نعم، إنّ الفرق واضح بين إنسانين: إنسان يحمل في داخله الرغبة في عمل الخير والإتيان بالعمل الصالح، لكن ثمة ما يمنعه ويحول بينه وبين مراده، وإنسان آخر لا يعني له الخير شيئًا إطلاقًا، ولا يجد في نفسه أي داعٍ يدعوه إلى

الدفاع عن المظلومين والتحرك نحو القضاء على الفقر والجوع والمرض والأمية والتخلف في الأمة وفي العالم، بل إنه إذا دُعي إلى شيء من ذلك سعى إلى اختراع الأعذار وابتكار المسوّغات التي يتهرب بها من أداء واجبه!

لقد تحدث القرآن عن وجود هذين النموذجين من البشر حول رسولنا الأعظم محمد ﷺ، فهناك النموذج الأول ممن كانت قلوبهم تتحرق شوقًا للجهاد بين رسول الله ﷺ، لكن كان يمنعهم الضعف والمرض والفقر، وهؤلاء يصفهم القرآن بـ «المحسنين». وهناك أيضًا النموذج الآخر ممن كانوا أغنياء، ولم يكن ثمة ما يمنعهم من الجهاد، لكنهم مع ذا كانوا يتهربون ويتذرعون بالأكاذيب، وهؤلاء يعبّر عنهم القرآن بأنهم قد «طبع الله على قلوبهم»، وذلك في قوله سبحانه:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى

ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾[١].

ونجد في الروايات الشريفة حثًا لنا على أن نسعى إلى إيجاد رغبة الخير في نفوسنا، حتى إذا تطلّب ذلك منا أن نجاهد نفوسنا في سبيل الوصول إلى هذه الرغبة، فعن خيرة الخلق محمد ﷺ أنه قال: «تكلفوا فعل الخير وجاهدوا نفوسكم عليه، فإنّ الشر مطبوع عليه الإنسان»[٢].

الجانب الثاني:

صلاح الآباء والأمهات مهم جدًا لصلاح الأبناء والبنات، نظرًا لما تقدم بيانه من أنّ الأولاد يرثون من الأبوين الصفات المادية والمعنوية. وهذا الجانب حريّ بأن يوقف الآباءَ والأمهات على مسؤوليتهم الكبرى بإزاء ذراريهم.

إنّ هداية الأبوين لأولادهما لا تقتصر على الإرشاد والوعظ والنصح، بل لا بد قبل ذلك ومعه من هداية عملية تطبيقية، بأن يتحلى الأبوان بالخير والصلاح والهدى بصفة

(١) سورة التوبة، الآيات: ٩١، ٩٣.
(٢) ميزان الحكمة ٥: ٤٤.

عملية حقيقية، فيكونان لأولادهما أسوة حسنة، وينقلان هذه الصفات الحسنة إليهم بالسلوك العملي، وليس بالوعظ اللساني وحده، وقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن»[١].

الجانب الثالث:

المؤمن الحقيقي هو الذي تقترن زيادة النعم الإلهية عليه بزيادة الصلاح عنده، فهذا نبي الله سليمان عليه السلام الذي آتاه الله تعالى من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده، وسخّر له الجن والإنس وقوى الطبيعة لخدمته وإطاعته، لم ينسَ فضل الله ونعمته عليه؛ لذا سأل ربه أن يلهمه الشكر، واقترن ذلك كله في وعيه بضرورة الصلاح، الصلاح بكل صوره ومظاهره.

أجل، هنا يظهر الفارق جليًا بين الإنسان المؤمن بالله والإنسان غير المؤمن، فالمؤمن إذا نال من ربه مالًا أو شهرة أو منصبًا أو أي مظهر آخر من مظاهر القوة والسلطة فإنه يستثمر ذلك كله في خدمة المؤمنين وفي قضاء حوائج الناس وفي الإتيان بكل الأعمال الصالحة والأفعال الجميلة التي

(١) نفسه ١٠: ٧٢١.

يظهر أثرها في مجتمعه والناس المحيطين به، بل في الأمة والعالم.

وفي مقابل هذا، نجد غير المؤمن لا يفكر إلا في مصلحته الذاتية الضيقة، فالوصول إلى القوة والمقام يعني عنده الاستزادة من احتكار الخير لنفسه وتجميع كل شيء لمصلحته، من دون أن يشغل نفسه إطلاقًا بصلاح حال مجتمعه ووطنه وأمته والعالم، بل شأنه في ذلك البخل والمنع. روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعليّ عليه السلام: «قل اللهم لا تحوجني إلى شرار خلقك»، فسأله علي عليه السلام: «يا رسول الله، ومن شرار خلقه؟» فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الذين إذا أُعطوا مَنعوا، وإذا مُنعوا عابوا»[1].

الجانب الأخير:

علينا في مجال الصلاح أن نكون كنبي الله سليمان عليه السلام، بأنْ لا نكتفي بمرحلة صلاح العمل وحدها: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، بل نسعى إلى الوصول إلى مرحلة أعلى منها، وهي مرحلة صلاح الذات، وهي المقصودة

(١) نفسه ٥: ٤٠.

بقوله: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فسليمان يسأل ربه هنا أن يجعله في زمرة عباده الصالحين، بأن يكون واحدًا منهم، أي من المتصفين في ذواتهم بالصلاح.

إنّ صلاح الذات مرحلة عليا من الصلاح، يكون فيها الصلاح جزءًا أساسيًا من شخصية الإنسان، فتكون هذه الشخصية منبعًا للصلاح ومصدرًا له حيثما اتجهت وفي أي ظرف كانت، مثلما قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «كن خيرًا لا شر معه، كن ورقًا لا شوك معه، ولا تكن شوكًا لا ورق معه وشرًا لا خير معه»[1].

ولا ريب في أنّ هذه الشخصية التي لا يفارقها الصلاح إطلاقًا تختلف اختلافًا جذريًا عن الشخصية الأخرى التي لا يصدر عنها الصلاح إلا إذا وُجد ثمة تكليف شرعي يُلزمها به! فلا تجدها تنجذب نحو العمل الصالح الخيّر، حتى في نطاق الأسرة والمجتمع، إلا إذا خافت مخالفة حكم شرعي بالوجوب! وما أكثر ما يُرى بين الأزواج أولئك الناس الذين لا يرون أنفسهم مطالبين في بيوتهم إلا بما هو واجب عليهم

(١) نفسه ٥: ٤٥.

شرعًا فقط، أما ما دونه فلا يرونه ضمن اختصاصهم، مهما كانت درجة استحبابه شرعًا، وأهميته عقلًا وعرفًا.

إنّ في وُسع كل إنسان منا أن يصل بنفسه إلى مرحلة صلاح الذات إذا توافر له عاملان أشارت إليهما الآية الكريمة:

العامل الأول: هو تكرار العمل الصالح، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة باستعمالها الفعل المضارع: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ ذلك أنّ تكرار صدور العمل الصالح من الإنسان - وإنْ يكن في بدء الأمر صادرًا بتكلف ومجاهدة - سيجعل من هذا الصلاح يتحول، مع مرور الأيام، إلى شيء ملازم للذات، لا يفارقها في كل الأحوال والظروف المختلفة.

والعامل الآخر: هو العناية الإلهية؛ لذا كان الطلب الدُعائي موجهًا إلى الله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فالإنسان منا مهما اجتهد وسعى وعمل فإنّ سعيه هذا لن يؤتي أُكُله حتى يتغمده الله (تبارك وتعالى) بعنايته ويرعاه بلطفه وفضله ورحمته.

هما، إذًا، جناحان نطير بهما إلى مرحلة صلاح ذواتنا:

أن نحرص على فعل الخير والعمل الصالح دومًا، دونما توانٍ أو تلكؤ أو تكاسل، وأن نلجأ إلى ربنا طالبين منه قبول أعمالنا وتوفيقنا لنكون ضمن عباده الصالحين، برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء.

الفهرست

الموضوع | الصفحة

١ - عملي وعملكم ١١
٢ - العمل على الشاكلة ١٩
٣ - التثبيت والإضلال ٢٩
٤ - اتخاذ عدم الدليل دليلًا ٣٩
٥ - غلبة الشقوة ٤٨
٦ - اتّباع الهوى الفكري ٥٦
٧ - المنع من الإيمان ٦٥
٨ - أظلم الناس ٧٥
٩ - التذكّر عند طائف الشيطان ٨٢
١٠ - أوان الخشوع ٩١

١١ - نسوه فأنساهم أنفسهم ١٠٢
١٢ - زيادة الهدى والباقيات الصالحات ١١١
١٣ - أكل وتمتّع وإلهاء أمل ١٢٠
١٤ - الهداية وشرح الصدر والنور ١٢٧
١٥ - الهداية والرزق والإنابة ١٣٥
١٦ - خطوات الشيطان ١٤٤
١٧ - التنزيل والرحمة ١٥٢
١٨ - الذكر الإلهي ١٦٣
١٩ - تزيين الشيطان ١٧٢
٢٠ - استباق الخيرات ١٨٠
٢١ - الصلاح، عملًا وذاتًا ١٩٢

IslamicMobility.com

In the age of Information
Ignorance is a choice

"Wisdom is the lost property of the Believer,

let him claim it wherever he finds it"

Imam Ali (as)